محاضرات

دار العلوم

المجموعة الاولى

اثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى

لحضرة صاحب الفضيلة

الاستاذ عبد العزيز جاويش بك

مراقب التعليم الاولي بوزارة المعارف العموميه

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م

مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم على فضل ما ألهمت من لطيف التوفيق الذى كان من خير ثمراته فى هذا العام قيام هذه النهضة العلمية فى المدرسة باحياء ذلك الفن الجميل من الالقاء والمحاضرة التى تعد وسيلة صادقة لوقايه الالسنة من عيب الحصر عند ارتياد الصواب وتسليم العقول من زلل الخطل عند استبهام العاقبة وهى الاداة الصالحة لابلاغ هذه الثقافات الناشئة وتلك الملكات الغضة فى مطارح التحصيل الى أفضل ما تسمو اليه من حب التمهر فى تمام البيان وكمال آلات المنطق الذى قوامه حلاوة المخارج واصابة شاكلة الصواب

وكان من اكبر دواعى الارتياح والغبطة أن بدأ ذلك الجهد العلمى المبارك بأنفس ما تهتز له أعواد المنابر وتحفل به نوادى الادب وهو القول فى تحرير القرآن للفكر البشرى ولا نقرظ هذا الموضوع ولا نطريه لحسبه انه يعتبر افضل مظهر لانتزاعات العقول الجديدة فى هذا العصر الحديث . ولا عجب اذا عددنا هذا الحرص الكريم وتلك المبادرة المشكورة ثمرة اخرى لهذا التوفيق فى تسجيلنا لهذا البيان الساحر على تلك الرسالة التى ستكون بلا شك من خير ماصرت عليه الاقلام من ذخائر النفائس وخاصة فى وقت يتظاهر فيه المفتونون على النيل من هذا الادب القدسى والعيب فى تلك البلاغات الربانية والله حسبنا ومنه الكفاية والعون

محاضرات

أثر القرآن الشريف فى تحرير الفكر البشرى

المحاضرة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

سادانى : —

لعل من المستحسن قبل أن أتكلم فى أثر القرآن الكريم فى حركة الفكر البشري وتحريره أن ألم لحضراتكم بنبذة تاريخية فيما كانت عليه الامم الكبرى فى طائفة من القرون التى سبقت ظهور الاسلام من التطورات وما تعاقب على العقول فيها من المد والجزر ، والتحرير والاستعباد فان فى ذلك ما يعيننا على ادراك مدى ما فعل القرآن فى انصاف العقل الانسانى واحلاله المقام الذى خوله خالقه منذ فطره وأوجده .

كان أساس القانون العام السياسى فى الامبراطورية الرومانية اباحة علنية الاديان وجميع العقائد والافكار وما زال الامر هنالك كذلك حتى دخلت بأوربة الديانة المسيحية التى ابتدأ بها عهد الحجر والحظر على ما سيأتى تفصيله .

لقد كان من أهم الدعاة الى تحرير الافكار من قيود الخرافات والتقاليد والقصص المزعجة التى كان يستعملها بعض شعراء اليونان ، ورجال الاديان فيهم (هراقليتوس) و (ديمقريط) ، ولقد تناول هذان بالبحث بعد المادة الطبيعية أحوال النفس البشرية والشئون السياسية وكان هدفهما ورائدهما فى جهودهما المنيفة امتحان كل شيء بالعقل والفكر . وكذلك ظهر (انكساجوراس) فجعل يعلم الناس ان الشمس التى يصلون لها صباح مساء انما هى كتلة من النار ملتهبة لا اله يعبد .

ومعلوم أن حركة هؤلاء الفلاسفة فى سبيل تحرير العقل مهدت الطريق لعلماء التربية المسمون بالصوفية أو السفسطائية الذين أخذوا يظهرون فى القرن الخامس للميلاد والذين وضعوا فى النصف الثانى من هذا القرن قواعد وأصولا للحياة الاجتماعية من ناحيتى (الاخلاق والسياسة) وبحثوا فى الخطأ والصواب والعقل وقانون التفكير والخطابة وهلم جرا ولكن جميع ذلك كان لا يتجاوز الاقلية المطلقة التى هى طبقة المفكرين والعلماء ، أما الدهماء والعامة فكانوا فى كل مكان أسارى الخرافات والعقائد الضالة . على انه لا ينبغى أن يسجل ما كان لأثينا فى ذلك العصر من التمتع بحرية الفكر والمناقشة فى الشئون السياسية والخاصة لعهد زعيم نهضتها الحرة (بريكل) الذى كان يحمى أرباب التفكير الحر حتى لقد كان حصناً للفيلسوف الجاحد لآلهة أثينا (انكساجوراس) من المحاكمة .

ومن وقائع ذلك الزمن وأحداثه ما يدلنا على أن النزوع الى الخروج على الاديان كان آونة لا ينجو من العقوبة وان ما كان ينشر من الكتب فى ذلك كان يجمع ويحرق أو يحرم بيعه علناً ولكن الاضطهادات والتنكيلات المنظمة التى كانت تقام فى أوجه المنطقيين (Rationalists) اللادينيين كادت فى أواخر ذلك القرن تختفى وذلك لوفرة عدد هؤلاء واضطراد نموهم وتكاثرهم . ولقد كان من القضايا المسلمة لدى الاغريق ، ثم الرومان حتى فى أرقى أعصرهم علماً ومدنية ومادية ان الدين نافع وضرورى لعامة الشعوب مطلقاً ، ولذلك كان يقول بفائدتها كركن للسياسة العامة حتى من لا يدينون بها كما أن فلاسفتهم ما كانوا يقدمون على نشر أية عقيدة أو نظرية من شأنها احداث اضطراب ما فى الحياة الاجتماعية . ومن الافراد البارزين فى هذا الميدان من الاغريق سقراط الذى يعتبر بحق أجل أولئك المربين فكان مما امتاز به وتفرد شديد تعلقه بطريق المناقشة والنقد واجتذاب كل من يحادثونه ومن يستمعون اليه الى طريق استمراض العقائد المعروفة المألوفة وامتحانها بمحك الفكر مع افساح صدر العقل لكل بحث واحتمال دون تقيد بشىء من التقاليد ولا وقوف عند رغبات الجماهير وانما سلك سقراط هذا الطريق فى نشره للعلم واقتياده شباب زمانه الى وجوه الحقيقة ومناهج التفكير الصحيح لان بلاد اليونان

منذ حوالى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد العيسوى كانت ميدان حركة فكرية ابتدعها أفراد من اليونان كانوا فى أول هذه الحركة اما مسترزقين أو طلاب شهرة وسمعة ثم أخذوا يسرفون فى أساليبهم الجدلية وطرائقهم التشكيكية غير مبالين ماذا يصيب العقول من التضليل ولا حاسبين حساباً لوخيم عواقبها ومنكر نتائجها .

ولقد أكثر هؤلاء من الخلط والتخبط وتجاوز ما بين الحق والباطل وما بين الفضيلة والرذيلة من الحدود حتى التبس الامر على العقول وخفيت عن بصائرها معالم العلم الصحيح وحدوده ولم يتركوا شعبة من شعب التفكير ولا ميداناً من ميادين المعرفة حتى أعملوا فى أساسها وأركانها معاول التشكيك لا لعلم يبلغونه ولا لصواب ينشدونه ولكن ضلالا وتضليلا ، وجهلا وتجهيلا ، فلما جاء سقراط بما أوتى من العقل الراجح والرأى السديد والعلم الصحيح لم يجد بدا أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ويسلك فى هدايتهم تلك السبل التى سلكها أولئك فى تشكيكهم وتضليلهم ولو انه انتهج فى تعليمهم وارشادهم غير هذه المناهج التى فتنوا وأغرموا بها لما استطاع أن يجتذبهم الى طريقه أو يبلغ بهم شيئاً من مقاصده . والى عهد سقراط لم تكن التربية العالية من أغراض السياسيين والمفكرين من اليونان .

ومع كون أثينا فى ذلك العصر كانت أشهر البلاد فى الديمقراطية وأكثرهن تسامحاً وحرية نجد التاريخ يسجل لنا ما لا يكاد يصدقه الوهم من الاضطهادات التى كانت تنال المتصدين للدعوة الى حرية الفكر والاحتكام الى العقل .

اشتهر سقراط بطريقته التحاورية وبالجدل والتشكيك والنقد وعدم التقيد بما عليه الناس إذ ذاك من التقاليد والافكار ولكن كان لدى اليونانيين من الروح المعادى لتلك الحياة العقلية الجديدة ما أفضى بهم الى محاربة الفلاسفة (وفى مقدمتهم سقراط) بسائر الوسائل لا سيما الروايات التى وضعوها للسخرية منهم والاستهزاء بهم وتصوير مثل سقراط زنديقاً غير تقى وداعياً مضراً حتى لقد ثارت عليه الامة اليونانية آخر الامر فاعتبرته ملحداً ومفسداً لعقائد الشباب وقتلوه سنة ٣٩٩ قبل الميلاد لهذه الاسباب كما يدل عليه ما جريات محاكمته وما قدمه فى الدفاع عن نفسه

وقد علمنا من التاريخ انه قدم لدره ما اتهم به من افسـاده لعقائد الشباب هذين الدفعين : —

(١) يجب على كل فرد مهما كانت النتيجة أن يقاوم كل ما يراد عليه مما يراه ظلما سواء صدر عن شخص صاحب نفوذ أو عن محكمة

(٢) أن لا ينزل مطلقا عن القول بأن فى المناقشة الحرة مصلحة للفائدة العامة وضمانا للعلم الصحيح

بعد ذلك بسبعين عاما اضطر ارسطو ان يفارق اثينا أيضا حذر ان يساق الى ذلك المصير لاعتباره فيها ملحداً أيضا .

ولقد جاءنا افلاطون انجب تلاميذ سقرط فى أخر ايامه بصدمة تراجعت بها الحركة التقدمية لحرية الفكر والمناقشة بعض الشيء فأنه يرينا فى (المدينة المثالية) انه لابد لأهل المدينة من قبول الدين الذى رسمه هو وصوره وان من لا يؤمن به يعاقب بالقتل والسجن وان حرية الجدل والحوار معاقب عليها على النحو الذى وضعه ..الخ على ان تعاليم سقراط فى محادثاته ظلت ينبوعا غزير المادة ترعرعت به عدة مذاهب فى الفلسفة . وصدر عن مرتواه جملة من الفلاسفة المعدودين كافلاطون وأرسطو واستونفيس وامثالهم ممن انبثت مذاهبهم فى اطراف بلاد الاغريق منذ ابتـداء القرن الثالث قبل الميلاد وفتحوا لهذه البلاد مصاريع ابواب الحياة العقلية وانعشوا فى اهليها حركة التفكير والتدبر .

ولقـد سبقت لنا المـامة بما ترك افلاطون وارسطو من الاثر فى تحرير عقول الآثينيين ولـكن من المفيـد أيضا ان نورد هنا ان ابيقور على رغم جحوده قيام السلطان الالهى فى هـذا الوجود للتدبير والتصريف ونبو بصره عن كل موجود سوى المـادة والماديات قد تخطى بالعقول الخاملة فى اقـدامه المدهش السريع من العقبات ما كان يستعصى على الاجيال والقرون . ولقد وجـد بعض الشعراء من الرومانيين فى فلسفته وحيا وإلهاما مستطابا اودعه قصيدته المسماة (فى طبيعة الدنيا)

ولم تكن فلسفة استويقس فى تحرير العقل الانسانى بأقل حظا من المذاهب المذكورة آنفا بل الحقيقة انها جاءت منظمة ومفصلة لجملة من القوانين الاجتماعية التى

لم يأت سقراط على بيان شيء منها ايام كان يقرر ان القوانين قد تكون غير عدل وان الناس يجرمون. ولقد كان لفلسفة استويقس اثرها فى الشرائع الرومانية فأن أساس القانون المدنى فى الامبراطورية الرومانية كان كما قدمنا سابقا اباحة علنية لجميع الاديان والجهر بسائر الافكار

أيها السادة :

قدمنا لحضراتكم ان حرية الدين وحرية الجهر بالفكر لازمتا الشرائع الرومانية حتى دخلت الديانة المسيحية فى اوربة فضربت هنالك من حولها نطاق الحجر والخطر لما كانت عليه من التقاليد الوثنية

ابتدأ بها الحجر لان الرومانيين كانوا يعتبرونها شعبة من اليهودية التى تنافر بطبيعتها التقاليد الوثنية الرومانية والتى ما كانت تتمثل لابصارهم سهلة سمحة

ولشدة نفور الرومانيين منها وبغضهم لها واعتقادهم ابتعادها عن روح التسامح اصدر تراجان قانون حكم القتل على من يدين بالنصرانية وان يكن احاطه بقيود لم تيسر السبيل الى الاسراف فى القتل ولكن الامبراطور بيوكلتيان اراد تأييد دين الحكومة وتثبيت قدم الحرية التى الفوها قديما فكان ما قرره من تنظيم المذابح فى المسيحيين بكل فظاعة وقسوة . وفى الحق ان الذى دفع ذلك الامبراطور الى هذه الجرائم ان المسيحية كانت تقبح ما اعتيد من عبادة الرومانيين لبراطرتهم على حين ان ملوك الرومان كانوا يرون ضرورة ان تخصهم الشعوب بالعبادة توحيدا لكلمتهم وتعلقا خالصا بعروشهم التى تمثل الامبراطورية جميعها . ولكن بدخول قسطنطين الكبير فى النصرانية دارت الدائرة على العقل فكان أول عهده بالاعتقال والاسترقاق . وبعد اذ كان رجال المسيحية فى القرنين اللذين سبقا ذلك ينادون بأن التسامح الدينى واجب وان العقائد ليست مما يلزم به الانسان جبراً فتنوا بدخول قسطنطين فى النصرانية وانقلب الأمر رأسا لعقب فكان الحكام والملوك لاسباب سياسية غالبا كما كانت الطوائف المختلفة لما بينها من الاختلافات المذهبية يوقدون نيران الفتن ويقيمون المذابح المريعة هنا وهناك حتى سلبت الدنيا الامن والسلام وفقدت الانفس الراحة الطمأنينة . ولقد كان من تعاليمهم ان النجاة لا تكون الا بقبول

المسيحية وان من لا يقبلها لا ينجيه فداء من عذاب الدنيا ولا عذاب الآخرة مهما بلغت فيه الفضائل ومهما قدّمت يده من الخيرات والحسنات ، وأنه اذا مات الطفل قبل التعميد فأنه فى الاخرة يمشى على بطنه فى أرض جهنم أبد الاباد .

ومن أقدس رجالهم (سانت اوغسطين) الذى مات سنة ٤٣٠ ميلادية فأنه وضع نظام اضطهاد من لا يقبل النصرانية واستمر ذلك من بعده متبعا الى القرن الثانى عشر وكلما حدثت بين النصارى بدعة أو عقيدة تقلل من دخل الكنيسة يشتد القسوس على اصحابها ويغلون فى ايذائهم والتنكيل بهم .

ولقد أمر البابا أنوسنت الثالث قونت طولوز أن يستأصل طائفة من رعاياه ذات بدعة مذهبية فلما لم يطع أمره أقام عليه حرباً صليبية كادت تفنى قومه . وفيها صودرت املاك ذلك القونت وكسرت شوكته ولم يصالحه البابا الا على شرط استئصال آثار ذلك المذهب من ملكه .

كذلك اقيم نظام التفتيش فى المنازل وغيرها للبحث عن الملحدين سنة ١٢٣٣ ميلادية وتم تنظيمه لعهد انوسنت الرابع سنة ١٢٥٢ وأدخل فى سائر المدن والممالك النصرانية وعين لذلك المفتشون من القساوسة ومنحوا من قبل البابوات السيطرة المطلقة غير مسئولين عن شىء يفعلونه وساعدهم على ذلك ما وضعه البراطرة لعقاب الملحدين من القوانين القاسية الجائرة

ومع كون فريدريك الثانى الكبير كان حر الفكر أصدر أمراً يقضى بأن كل من ينكر أو يبتدع شيئاً فى النصرانية يعتبر خارجا ويحرق منهم من لم يتب ويحبس من تاب ومن ارتد قتل وتصادر املاك الجميع وتدمر بيوتهم . وكذلك أطفالهم لا يستحقون الرحمة لاهم ولا أنسالهم إلا إذا أخبرو عن ملحدين أو مبتدعين ولو كانو آباءهم . وقد جعل فريدريك (الخازوق) عقوبة الالحاد والابتداع وطبق ذلك الامر فى ايطاليا والمانيا خلال ١٥ عاماً (١٢٢٠ — ١٢٣٥ م) ثم عمم نظام التفتيش فى غرب أوربا . ولعهد هنرى الرابع والخامس عوقب الالحاد بالخازوق فى انكلترا بقانون اصدر سنة ١٤٠٠ ونسخ سنة ١٥٣٣ ثم أعيد لعهد الملكة مارى ونسخ نهائيا عام ١٦٧٦ م)

واستمرت فى تطبيقها على المسلمين واليهود بأفظع الطرق الوحشية ولم تنسخ قانونيتها الا فى القرن التاسع عشر وكانت خلال ذلك تطبق هذا القانون على من حملتهم على الردة من البيوتات الاسلامية واليهودية . وبالجملة فقد كانت القاعدة التى بنى عليها نظام التفتيش « خير أن يقتل مائة أبرياء من أن يلحد فرد واحد » وبهذه القاعدة صاروا يقتلون ويحرقون لأقل شبهة ولم يكن لأحد حق الدفاع عن نفسه ولا كان لمحكمة أن تقبل فى حال ما شاهد نفى

وكما فعل بمخالفى العقيدة النصرانية كذلك فعل بطوائف السحرة فمن ذلك أن البابا « أنوسنت الثامن » نشر فى سنة ١٤٨٤ بلاغاً يؤكد فيه أن الطاعون والعواصف من عمل السحرة فتتبعوهم فى كل مكان فاتكين بهم الفتك الذريع وبالخاصة فى انجلترة واسكوتلانده

وفى أواخر القرن الثانى عشر جاء للعقول قبس من دنيا أخرى ليفك عنها أغلالها وسلاسلها اذ أخذت فلسفة أرسطو بواسطة العرب تبسط نفوذها فى غرب اوروبا . ولقد كان لابن رشد وأمثاله حظ كبير فى تحرير عقول أهل أوروبا كما نالهم كثير من مناهضة البابوات لتعاليمهم فاننا نجد البابا يوحنا الحادى عشر يقبح تعاليم ابن رشد ويحكم بضرر وجودها ونشرها كما أن القس توماس قسيس أكوينو بجنوب ايطاليا سنة ١٢٧٤ قام فأسس للكنيسة فلسفة ازاء فلسفة أرسطو والعرب وهذه لا تزال تتمسك بها الكنيسة الرومانية . والحقيقة أن فلسفته ما كان من شأنها تثبيت العقول البشرية على قرار بل انها فى أغلب المواطن كانت تحركها كريشة فى مهب الرياح ساقطة لا تستقر على حال من القلق

وقد أجمع المؤرخون على أن الحركة الفكرية والنهضة العلمية دخلتا أوربة فيما حول القرن الثانى عشر الميلادى من طريقين : (أحدهما) الاحتكاك الذى ظل نحو قرنين مستمراً بين أمم أوربة والشرق الاسلامى خلال الحروب الصليبية و (ثانيهما) طريق المعاهد العلمية التى أقامها العرب فى الاندلس ونابولى وجزيرة صقلية . والمحققون من المؤرخين يقررون أن من بدىء بهم تاريخ النهضة العلمية فى اوربة روجر بيكون

وأمثاله كانوا من الواقفين على اللغة العربية واللاتينية التى كانت لاتنفك تنقل اليها علوم العرب ومباحثهم فى كل فن . واذا انتحل هؤلاء أو عزى اليهم ابتكار أو ابتداع فانما سبب ذلك ما تعمـدوه غالباً من اغفال المصادر التى أخذوا عنها حتى لقد رجح أئمة التاريخ أن روجر بيكون الراهب الانجليزى الذى يعزو اليه الفرنجة فضل السبق فى العدسات والنظارات انما أخذ هذا عن الحسن بن الهيثم صاحب المباحث العظيمة فى الطبيعيات لاسيما الضوء والبصريات . فمجاورة أهل أوربة لأهل القرآن الذى حرر العقول وأقام صروح العلوم وزين الدنيا بجميل الفنون هى التى فتقت بصائرهم وكشفت عن حديد أبصارهم أغشـية الجهالة التى حجبتهم عن أنوار الهداية أدهارا طويلة . ولو أن هؤلاء الغربيين وقفوا من العقل الانسانى موقف أهل القرآن من كل وجه لما تأخرت نهضتهم الفكرية الصادقة عن ذلك الوقت الذى اتصلوا فيه بالمدنية العربية وحرية الفكر الاسلامية ولـكن كان لسلطان رجال الدين فى تلك العصور واسترقاقهم لعقل الدنيا المسيحية خلالها ما قاوم تقدمهما وأضعف تأثيرهما فلقد وجهوا الفلسفة الواغلة فيهم الى المناحى الدينية وقصروها على المباحث الكنسية وبذلك صرفوها عن وجوهها الاصلية وقصدوا بها الى غير غاياتها الطبيعية

ومع أن المرسوم الذى أصدرته الـكنيسة الـكاثوليكية سنة ١٥٢٩ م قاضيا بوجوب الانصراف عن جميع المجادلات وألا تفسر التوراة والأناجيل الا بما تقرره الـكنيسة قد أغضب كثيرا من الأمم النصرانية . وبرغم أن هذا القرار فى الواقع كان من أهم أسباب ولادة المذهب البروطسطنتى فان لوثر صاحب هذا المذهب لم يلبث أن قرر أن للحكومة حق اجبار الشعب على قبول ما رأى أنه العقيدة الصحيحة وان لها استئصال الملحدين المنكرين لها

بذلك الـكيد المبيد للعقل الانسانى والغدر الاثيم به لم تقو الحركة الفـكرية على المضى فى سبيل حريتها والظهور على ما كان يبيت لها رجال الدين من الحروب الشعواء حتى كانت أواخر القرن السادس عشر حينما ظهر فرنسيز بيكون الفيلسوف الانجليزى بحملاته العنيفة على الفلسـفة الدينية مصدعاً بمعاوله صروحها الشامخة الرهيبة داعيا الناس الى تحرير العقول ومعالجة المسائل العلمية بأساليبه الجديدة التى وضعها واقتاد

الباحثين اليها فبدأ بذلك عهد التجديد العلمى والتحرير العقلى الذى لاتزال المشارق والمغارب حتى اليوم تنعم بشهى ثماره الدانية القطوف

يبتدىء تاريخ الفلك الجديد بأوربة كما هو معلوم عام ١٥٤٣ م ذلك حينما نشر كتاب كوبرنيقوس الذى يثبت به دورة الارض حول الشمس ثم زاد غاليليو بواسطة تلسكوبه اثبات أقمار المريخ واثبات دورة الارض حول نفسها مستدلا على ذلك باللمع المظلمة التى رآها فى جسم الشمس فماذا قابلته الكنيسة ؟ لقد قرر المكتب المقدس فى فبراير سنة ١٦١٦ أن مذهب قوبرنيقوس سخيف ومعارضته بما جاء فى الوصية (وصية المسيح) يعد هرطقة. ولقد حرمت رومة تعليم نظام المجموعة الشمسية الى مابعد منتصف القرن الثامن عشر. وقد أربك هذا التحريم دراسة العلوم الطبيعية فى ايطاليا . وكذلك أقام البابا الكسندر الرقابة على المطبعة سنة ١٥١٠ كيلا تنشر ما لا ترضاه البابوية من الافكار الحرة ولو كانت حقائق علمية ثابتة . وفى فرنسا كان الملك هنرى الثانى يعاقب بالقتل كل من يطبع شيئا بدون ترخيص. والحقيقة أن الطبع لم يصر حراً فى أية قطعة من أوربة الا فى القرن التاسع عشر وهو العصر الذى ضعفت فيه سيطرة الكنيسة وقويت شوكة الملوك والامراء المدنية وسادت النظم والقوانين الدستورية — ولما تأسست الجمهورية الديموقراطية فى فرنسا (١٧٩٢ — ٥) أعيد وأيد القانون القاضى بعدم الاعتراف بالسلطة البابوية ولكن وجد بجانب ذلك حركة شديدة ضد الكنائس اذ أصدرت باريس أمراً باغلاق سائر المعابد بلا تفرقة ولا استثناء مستعملة فى ذلك القوة القاهرة والصرامة الماضية ولكن حينما جاء روبسبير فى رأس الحكومة قرر أن يكون دين الحكومة عبادة العلى الكبير (ابريل سنة ١٧٩٥) وبعد قليل أحدث دين وضعى جديد يسمى دين الفطرة وهو دين فلاسفة ذلك القرن ودين شعرائه مثل فولتير. وقواعده هى القول بالله وخلود النفس والاخوة والانسانية (الرحمة) وألا تهاجم هذه الديانة غيرها من الاديان والمذاهب ويسمى هذا الدين الجديد دين محبة الله (Theophilanthropy) ولما كان عام ١٨٠١ جاء نابليون فقلب هذا الدين رأساً لعقب وأظهر البابوية ثانية فى الميدان ولم يكن يقصد من ذلك الا الانتفاع بالسلطة

الروحانية والاستفادة منهما فى حروبه المستقبلة وتوسيع امبراطوريته فى عالم الكثلكة

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر زلزلت عقيدة جماعات من المسيحيين لما كان يذاع اذ ذاك من أن فى التوراة والاناجيل من التضارب والتنافر ما لا تقوى العقول على قبوله . فتفشى بذلك انكار الوحى وسادت المناقشات العلمية هنا وهناك. وفى القرن التاسع عشر انتظمت الحملات على التقاليد القديمة فاجتثت كثيرا من أصولها وان يكن علماء تلك العصور اختلفوا فيما بينهم بعض الشىء فمنهم من أنكرها بتاتاً واعتبرها غير معقولة وسخيفة ومنهم من لم يصل الى هذا الحد المشئوم . فبسكال الفرنسى كان من المؤمنين بها وبيكون الانجليزى كان يعلن اللاهوتية وان يكن مضمراً للالحاد . وهناك ديسكارتس كان من ناحية أخرى يحاول أن يوفق بين العقل والكنيسة

ولقد نقتفى فى بعض الآونة أثر تغلب العقل على الكنيسة فى معاملة السحرة فاننا بعد أن رأينا كيف كان جمس الاول عملا بآية الانجيل « لا تبقوا على حياة السحرة » (Thaw shalt not suffer them to live) يطارد هؤلاء المساكين بكل صرامة وغلظة نشهد فى أواخر أحداث عام ١٧١٢ كيف يعتبر المحلفون الساحرة (جان ونهام) من أهالى هرتفوردشير مجرمة تستحق عقوبة القتل فيرفض القاضى قولهم ويبرئها غير متأثر بتعاليم الكنيسة ولا متقيد بالتقاليد السائدة اذ ذاك

ولقد نسخ هذا القانون نسخا سنة ١٧٣٥ ولكن فى سنة ١٧٥٢ حكمت محاكم اسكوتلانده باحراق امرأة ساحرة

ومن المذاهب الجديرة بالذكر ما أحدثه فى هولندا فيلسوف يهودى اسمه اشبينوزا وأعلنه الى الناس عند ماحل عقال الفكر وألقى حبله على غاربه. وعقيدته أن هناك الماليس قائما بذاته وأنه ليس للانسان ارادة حرة وان القول بالعلة الأولى أو علة العلل خرافة وبعبارة أخرى كان يقول كما هو الظاهر بوحدة الموجود أو وحدة الوجود ولا بد أن يلاحظ أن هذه الكلمة كانت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر رمزاً الى صاحب الفكر الحر فكانت عبارة مقت وتكفير الا فيما ورد

منها فى بعض الكتب الدقيقة ولكن الحقيقة أن الذين سموا اذ ذاك بذلك الاسم لم يكونوا الا الهيين بيد أنهم ينكرون فقط الوحى

ومن معاصريه لوك ومغزى كتابه الذى وضعه سنة ١٦٩٠ ان العلم جميعه ليس الا نتيجة التجارب وأخضع الاعتقاد فى جميع أحواله للحكم العقلى وقرر رفض ما يخالف حكم العقل من الوحى وان الوحى لا يعطى علماً صحيحاً كالذى يعطيه النظر العقلى. وقد وضع كتابا فى موافقة النصرانية للعقل . ولقد حذا هذا الحذو معاصره بايل الذى وضع بعد نفيه من فرنسا الى هولندا كتابه (القاموس الفلسفى Phylosophical Dictionary) ومن كلامه ان فضيلة الاعتقاد تنحصر فى الايمان بقدرة الله وسلطانه وحده ويقول انه يستحيل أن يتصور الالهيون تطبيق صفات الله الارثوذكس على الاله الذى ثبت بالعقل وجوده . ولما قبل فريق من الارثوذكس تحكيم العقل ضلوا وسقط كثير منهم فى هاوية الالحاد. وقد تطابق الالهيون واشبينوزا على القول بأن الكتب السماوية تفسر كغيرها من الكتب

ولقد ظلت أفكار الألهيين خفية مكتومة الى سنة ١٦٨٥ م حين أبطلت قوانين المطبوعات فابتدأت إذ ذاك تظهر بعض الظهور برغم ما كان أمامها من العقبات الادارية الأخرى وهى : (١) أنه كان لرجال الدين حبس كل من يطعن فى المسيحية أو يظهر آراء تخالف ما لديهم من تقاليدها أو يأتى بالحاد أو سب المسيح (٢) ترجمة القانون العام سنة ١٦٧٦ (ترجمة قاضى القضاة هيل فى قضية رجل يدعى تيلر) القاضية بأن أى عمل أو قول أو رأى يخالف تعاليم الكنيسة يعتبر مخالفاً للقانون العام إذ النصرانية رُكن من أركان القانون العام الانجليزى (٣) صدور قانون عام سنة ١٦٩٨ يقضى بأن كل نابت فى النصرانية لا يجوز له أن يعلن مخالفته لأصول الكنيسة وتعاليمها . ومن يفعل ذاك يعاقب لأول مرة بالحرمان من الخدمة فى الوظائف العمومية وفى الثانية يحرم من الحقوق المدنية العامة مع حبسه ثلاث سنوات

ولقد تولى فولتير وروسو فى القرن السابع عشر قيادة حركة تحرير الفكر . وللأخير يعزى كتاب « إميل » الذى أحرق علناً فى باريز وصدر أمر الحكومة بالقبض على مؤلفه فاوسعه غير صدر فردريك ملك بروسيا ولكن رجال الدين هنالك ما زالوا

يضيقون الأرض عليه حتى اضطروه الى مفارقة بروسيا . ولقد كان لروسو أعظم تأثير فى الحياة الاجتماعية بعد الذى نشر من نظرياته الاشتراكية فى كتابه « العقد الاجتماعى » (Social contract) الذى أحرق علناً فى جنيف

وفى سنة ١٧٧٠ فوجىء القراء الفرنسيون بالدهش يوم ظهر كتاب البارون دى هولباخ (نظام الطبيعة System of nature الذى انكر فيه وجود الله وخلود الروح وقد انتشر فى القرن الثامن عشر الالحاد وحرية الفكر رغم مطاردة زعماء هذه الحركة واضطهادهم . على ان ذلك استمر الى ماوراء هذا القرن فقد حوكم كارلايل سنة ١٨١٩ وسجن ثلاث سنوات عندما نشر كتابه (عصر العقل Jage of Reason) ثم جلدت امرأته وبنته وكثير من بائعي الكتب المحاكمة بسبب ذلك الكتاب.

وفى أواسط القرن الثامن عشر ابتدأت حركة الحرية الفكرية بعد اذ كانت العقول هنالك مكبلة مغلولة وبعد أن رأينا كيف نفى أبو فردريق ملك بروسيا الفيلسوف وولف لمجرد أنه مدح ديانة كونفشيوس الصينية وما كان لأحد فى رأيه أن يمدح دينا غير دين النصرانية . فذلك ابنه يجيء على أثره بالتسامح الذى جعل أرضه موئلا ومعاذا لسائر المضطهدين والمطاردين من البلاد الاخرى. ثم جاء شكسبير وغوته بما قدما لعالم الادب نخطوا بالعالم فى حرية الفكر خطواتهما الواسعة . وقد زلزل الثقلين (كانت الفيلسوف) اذ بين فى كتابه (نقد العقل الصحيح Critic of pure reason) بطلان الاستدلال على وجود الله بهذه الكائنات وبطلان الادلة التى أقيمت على خلود الروح وادعى ألا مصدر للعلم سوى التجارب وان يكن فى آخر الامر وضع كتابا آخر روحه الهية وذلك حرصا منه على الاخلاق فى الشعب التى هى ميزان الحياة الاجتماعية. والتى لا سبيل الى اصلاحها وتقويمها فيما ارتأى سوى أن تصبغ صبغة روحانية وتسند الى مصادر سماوية

المحاضرة الثانية

سادانى :

مما تقدم يفهم أن مرجع العلوم العصرية فى البلاد الغربية ، والقرن السابع عشر الذى شهد ثبوت نظرية فوبرنيقوس والقوة المركزية الجاذبة ونظام الدورة الدموية والقواعد الحديثة للكيمياء والطبيعة . كما شهد معرفة كنه الكواكب والشهب وكيفية تولدها . ولكن هذه المكتشفات ظلت الى القرن التاسع عشر لا تفسر المسائل الكونية الغامضة التى وردت فى كتب العهدين الا بدرجة محدودة . بيد أنها مع ذلك قادت الافكار الى البحث فى الروايات التاريخية التى جاءت بها كطوفان نوح وسفر التكوين . فلقد جاء لابلاس فى أوائله كما قدمنا فقرر أن أبحاثه تفضى الى رفض نظرية وجود الخالق . ثم تقدمت مباحث علم الجيولوجيا . وجاءت بفروض ناطقة بما يناقض فى الجملة سفر التكوين وقصة الطوفان .

وفى عام ١٨٦٣ أوضح الأستاذ ليل الفرنسى (Lyell) فى كتابه قدم الانسان إن الانسان سكن الارض قبل العصر الذى عينته التوراة بأزمان مترامية فى القدم ولكنه رأى إمكان الجمع بينها باعتبار اليوم الذى جاء فى التوراة طويلا جدا لا كأيامنا المألوفة واعترض عليه بأن هذا لا يمكن تطبيقه على الايام التى خلق فيها الانسان ، فان التوراة تفيد أنها كانت كأيامنا .

وقد زعم الفلاسفة المحدثون أن علم الجيولوجيا زعزع أركان الاناجيل . ولكنها تركت بابا للقول بوجود النوع البشرى (قبل التاريخ) وما زالوا على هذا المذهب حتى جاء علم الحيوان مبينا أصل الانسان فطبقوا على البشر قانون النشوء والارتقاء وسائر النواميس الطبيعية . وكاد يعتبر هذا من الحقائق الثابتة منذ ظهر كتاب دارون أصل الأجناس Origin of species عام ١٨٩٥

وازدادت الثورة الفكرية وتأججت نيران الجدل عند ما ظهر فى عام ١٨٧١

كتاب دارون منشأ الانسان (The Descent of man) بين الدينيين وغير الدينيين حتى لقد يؤثر عن غلادستون فى تلك الآونة قوله « اذا قلنا بنظرية النشوء والارتقاء تكون وظيفة الاله باعتباره خالقا قد انتهت ، ولو سلم القول بعدم تغيير القوانين الكونية وأنها قارة خالدة على حالة واحدة لاصبحت حكومة الرب فى العالم مما لا حاجة اليه » واذا أردنا أن نعرف مركز العقل ومدى حرية الفكر فى البلاد الغربية غير الاسلامية حتى فى أواسط القرن الاخير فحسبى أن أقتبس لكم كيف صور المؤرخون بلاغاً أذاعه أحد الكرادلة من الانجليز اذ يقولون :

« فى سنة ١٨٦٤ أدهش الكردينالماننج الانجليزى عالم النصرانية ببلاغ يقول فيه « إن لكل إنسان أن يعتقد ما يراه بنظره صحيحاً . وأنه ليس للكنيسة حق الاكراه على العقائد . وأن علم ماوراء الطبيعة ممكن ، بل يجب ألا يتقيد بالوحى ولا برغائب الكنيسة وأن للكاثوليكيين حق دعوة من يشاءون من مهاجرى الملل الاخرى . وأن لهؤلاء أن يقيموا صلواتهم جهرة ، وأنه يجب على البابا أن يقيم فى فى سلام مع الرقى العلمى والحرية والمدنية »

فلننظر كيف اعتبر المؤرخون نشر ذلك البلاغ من الاحداث الكبرى التى أدهشت عالم النصرانية مع أنه عند التدبر لم يأت بأكثر مما عرفه العالم الاسلامى وألفه منذ أشرق نور القرآن على القلوب وتجلت تعاليمه الفطرية على العالم الانسانى تفرض التفكير وتقبح التقليد وترفع الحجر عن العقول

***

مما أسلفنا تعلم مبلغ ما كان بين الفكر البشرى وبين ملل الغرب من الجدال العنيف والصراع الدائم فى الاعصار العديدة حتى كاد ينتهى النصر فى العاقبة للعقل ويكتب الغلب لحرية الفكر

وإنما قلنا (كاد) لأننا لانزال نرى فى بعض ممالك أوربة بل وفى أمريكا الجديدة أقواماً لاينفكون ينصرون القديم ويفضلون الجمود على ما كان عليه الاولون ، ولو عارض المشهودات العينية وناقض الحجج المنطقية . وهل نسى أحد منا كيف

عاملت فى العام الفارط إحدى جامعات امريقة كبيرا من اساتذها لترويجه مذهب دارون . يوم قامت من حوله ضجة وعجة لم يخفت لها صوت حتى انتهت بفصله عن كرسيه فى تلك الجامعة .

حسبنا أيها السادة تلك النبذة الموجزة لتصوير ما كان عليه العقل البشرى فى الغرب من الازمات التى احتمل مالا يوصف من آلامها وشرورها ادهارا طوالا فى سبيل حريته واستقلاله فالآن . فلألم إلمامة خفيفة بما كان عليه العقل فى الشرق الاقصى فى ذلك الوقت الذى انتعشت فيه الحركة الفكرية ببلاد الاغريق ، أى فيما حول القرن الخامس قبل الميلاد فاقول . بينما يقوم فى الشرق الادنى أكسينوفانيس فيها جم آلهة اليونان ممطرا إياها وابلا من التهكم والسخرية داعيا الناس إلى ترك عبادتها والزراية بسخافاتها ، وبينما كان هيركليتوس وديموقريتوس يعالجان العقول البشرية لتحريرها من امر التقليد الجاهلى واجتذابها الى حظيرة التفكير فى ملكوت السموات والارض : نجد فى الطرف الآخر من الشرق مثل تلك الحركة العقلية والنفسية تنبه الهمم الخامدة وتقتاد الشعوب الضالة الجاهلة فى سبيل التفكير والبحث عما فيه صلاح حياتهم الاجتماعية : ففى الهند يظهر بوذا بتعاليمه ، وفى الصين يحارب قونفشيوس ما كان فى قومه وحكام عصره من التفاوت فى الطبقات والنزوع الى الفوضى السياسية والاجتماعية ويهذب ما كان يرى فى أمراء زمنه من القسوة والغلظة والجور واستعباد الناس

ومما يلاحظ هنا أن الشرقين ، وان اتحدا أو تقاربا فى زمن نهوضهما ذلك فقد تشابها فى كنه تلك النهضة وطبيعتها ، الا انها كانت فى الهند أشد عناية بتهذيب النفس وتطهيرها من أدران الاخلاق الفاسدة منها بغيرها من الشؤون العامة المادية ، كما ان النهضة القنفوشيوسية فى الصين كان هدفها وضع النظم وتقرير الدساتير لضبط الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والمظاهر المادية .

سادانى . . كما جاء رجال الدين فى الشرق الأدنى والبلاد الغربية بما بسطنا سالفا من البدع والمظالم والمغارم والطقوس العباديه والعقائد التى ارهقت العباد

وأزهقت الارواح واستمادت استعباد العقول وجمات القرون الوسطى شر القرون وأشقاها،
كذلك فعل زملاؤهم فى الصين والهند وما حولها مثل ما فعلوا ، فكان من حكمة العليم الحكيم ورحمة الرفيق الرحيم أن يشرق على عباده وخلائقه الحائرين فى ظلمات الضلالة الهائمين فى أودية الجهالة ليفك أغلال عقولهم ويرفع منزلة نفوسهم ويكلهم الى وحيه المنقذ لا إلى تجاريبهم العاثرة ، وان يقيهم مصارع المجالدات والمصادمات التى فنيت فيها الملايين من طلاب الحرية والمساواة والعدل من أصحاب الملل والنحل الأخرى

شاء جلت حكمته ذلك فكتب أن يرسل القرآن بدين الفطرة ليحرر بأوامره القدسية النفوس المغلولة وينجى من معاثر الجهالة العقول الضالة

ستعرون أيها السادة فيما أقص عليكم كيف سار القرآن الكريم بالفكر البشرى فى سبيل الحرية وأين حل بالعقل من المنازل العلية بيد أنه يجمل أن ننتهز هذه الفرصة لنناقش ما قد يجيش بخلد البعض من انه اذا كان دين القرآن هو دين الفطرة وأذا كان مقياس صحة الاحكام فى نظر القرآن هو العقل والمنطق فماذا عسى أن تكون فائدة الدين ؟ ولماذا لا يترك العقل البشرى يجاهد وحده فى سبيل الحق والحقائق حتى يبلغهما وينقب عن الخير والشر والنافع والضار حتى يفقه كنهها ويدرك حدودها ويعلم ما بينها من الفوارق والمميزات؟

الى أمثال هؤلاء نقول أن من الممكن أن تصل العقول البشرية بالبحث والتنقيب والتجاريب الى ما تصبو اليه النفس الانسانية من مراتب الكمال فى الاحكام والتصورات والنظم الاجتماعية والمسائل العلمية والآداب الخلقية ، ولكن فى سبيل ذلك عقبتان لا بد من تسنمهما حتى تتحقق مثل تلك الامنية احداهما عادية والاخرى طبيعية .

فأما الاولى فهى : ضرورة انسلاخ عدة من القرون فى التجاريب والابحاث التى يقتضيها الوصول الى ما تنشده النفس البشرية من وجوه الصواب المطابقة للمصلحة .

وأما الثانية : فهى ناموس النشوء والارتقاء أو التطور التدرجى الذى بالاعتماد

عليه وحده فى عالم المعقولات والمعنويات لا يمكن أن يصل العقل البشرى الى مرحلة، حتى يكون قطع ماقبلها من المراحل

على أن ثمة عوامل أخرى تكتنف سير العقل فى أحكامه وأبحاثه وكثيراً ما تقوم منها العوائير التى قلما ينجو معها من السقوط والزلل وأهم تلك العوامل الانفعالات النفسية والاضطرابات العصبية التى لا يجهل أحد منا آثارها فى شعب الحياة الاجتماعية والعقلية والادبية . ومن المغالطة أن نبرىء أنفسنا أو ندعى بلوغ الكمال فى شىء من أفكارنا وأحكامنا وعواطفنا ما دمنا نجمع بين جنوبنا نفوساً أمارة ، الى قلوب متقلبة ، الى شهوات مطاعة ، الى هوى متبع .

فالدين فيما أراد منزله جل شأنه ضرورى لأصحاب تلك الاهواء المتقلبة والنفوس الجامحة .

لذلك وللسلوك بالناس أقصر طريق وأقومه وأسلمه يرسل الخالق صفوة خلقه بالهدى ودين الحق رحمة بعباده أن تزل أقدامهم وتضل أحلامهم وتفتنهم أهواؤهم وتضيع مئات السنين أو آلافها فى البحث عما تصبو اليه نفوسهم من العلم والحرية والمساواة والعدل وسائر الفضائل والكمالات .

* * *

جاء القرآن بدين الفطرة فى كل شىء فطابقت قواعد أحكامه وأصول آدابه وشرائعه مقتضيات الفطرة البشرية حتى لقد كان من أمهات أصوله فيما هو خاضع لتأثير المؤثرات وعرضة لتعاقب التطورات أن يكون العرف فى كل أمة مقياس تقديرها ومن هنا كان لا بد أن تختلف المسائل الفرعية باختلاف الازمنة والامكنة والعرف الخاص فى الشعوب والاقوام المختلفة وبذلك طابق القرآن مطالب العقل غير متنكر لما فطرت عليه طبيعته ولا متجاهل مبلغ سلطانه وآثاره فى الحياة الاجتماعية بجميع شعبها.

* * *

عرف القرآن ان الانسان مفطور منذ بدء احساسه وشعوره على البحث عن علل ما تدركه حواسه من الاحداث والكائنات فزاد تلك الغريزة تنشيطاً وانماشاً وما انفك يقرع الجامدين على المنقولات المحصورين فى مضايق التقليد فلا يكاد

يخلو له مقام من دعوة الى تدبر وتفكير ولا تنفرد له مجادلة عن حجة يقيمها على الخصم أو برهان يحاكمه به اليه.

* * *

لم يكن من منافرات العقل أن يأتى القرآن فيدعو الناس الى الايمان بالرسل والانبياء والاخذ بما كلفوا تبليغه من الاحكام والشرائع والآداب والفضائل فان ذلك للمتدبر من مقتضيات العقل وطبيعته . ذلك ان العقل مفطور على الشعور بالحاجة الى ما يدفع عادية الافراد والجماعات بعضهم على بعض (ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الارض . . الخ) كذلك هو مسوق بغريزته الى أن يضع أو يقبل كل ما يرى فيه ضماناً لنظام الحياة الاجتماعية فى العالم الانسانى . وبما أن عقل الانسان معروض للافلاس والزلل فى معالجة الشعب التشريعية والادبية والعلمية على ما بسطناه فى محاضرة أخرى كان بطبيعة الحال ميالا الى الطمأنينة والسكون الى من يثق به والى قبول ما يكفيه عناء البحث والتنقيب ويقيه مخاطر المغامرات التى تستلزمها الظنون والتجاريب شاخصاً الى وحى ينزله المحيط بما عليه البشر من الفطر والغرائز والطباع، العليم بما فيه صلاح شأنه واسعاد حياته . وان حرص الانسان بفطرته على التماس أقصى الطرق المؤدية الى ما ينشده من الرغائب والكمالات ليدفعه الى طلب القدوة التى تسكن اليها نفسه وتقبل ما يصدر عنها من الاقوال الحكيمة والنصائح القويمة وهذا هو سر اندفاع العامة بل وأكثر الخاصة الى الاعتقاد فى أفراد من الناس يرجون أن يبلغوا بهم منازل الكمال ويعيشوا بهديهم فى سعادة وسلام من الانبياء والرسل وممن على قدمهم من الدعاة . وانما طبع الانسان على ذلك لانه يكره أن يتدرج فى تعرف الفضائل وطلابها تدرجا قد لا يدرك فى غضونه صواب أمره أو لا يضمن سلامة سبيله فهو حذر الوقوع فيما يخشى عواقبه من شتى الاعمال والتصرفات والاحكام يميل بفطرته الى الاصاخة والاستماع الى المبشرين والمنذرين من الدعاة عسى أن يجد فيما يدعونه اليه ضالته المنشودة التى يصبو اليها وقلما عرف لها إذا ترك هو وشأنه سبيلا .

فالانسان بفطرته السليمة وعقله الحر مدفوع الى الطمأنينة والاعتقاد فيمن

يسلك به سبل السلامة من الخطأ والخطل والزلل حذر أن يفوّت عليه جهله وضلال فكره ومعوج سعيه بعض ما تصبو اليه نفسه من طيبات الرغائب وجميلات المطالب وبمقتضى هذه الفطرة أقيمت المدارس والجمعيات التهذيبية ورجال المذاهب الصوفية وانكب عليها الناس من جميع الطبقات ومختلف الاسنان فى سائر الازمان.

* * *

تقدم أن القرآن لم يذر وسيلة موصلة الى انعاش العقل وتحرير الفكر الا تذرع بها فهو إذا تحاكم فالى العقل، وإذا حاجّ فبحكم العقل، وإذا سخط فعلى معطلى العقل، وإذا رضى فعن أولى العقل.

جادل القرآن من جادل من ارباب الملل والنحل والماديين والدهريين فما قارعهم الا بالبرهان، ولا دعاهم الا الى البحث والنظر.. من ذلك آية «لهم قلوب لا يفقهون بها. ولهم أعين لا يبصرون بها. ولهم أذان لا يسمعون بها. أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون». وكم من آية قرع فيها أولئك الضالين لالغائهم عقولهم أو لاحتباسهم اياها على ما وجدوا عليه أباءهم ولو جيئوا بأهدى منه كما فى آية «وأذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان أباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون»

ومن الايات التى هزمت أشياع التقليد المعطلين لعقولهم فى كل زمان ومكان شر هزيمة قوله تعالى فى الايات «ولا تقف ما ليس لك به علم. ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا» و «ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون» و «ومنهم من ينظر اليك افانت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون»

ولا تكاد تمر بك أية فى المجادلات الا وهى مختومة بمثل «بل اكثرهم لا يعلمون» «قليلا ما تذكرون» «هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين» «أنىّ يؤفكون» «لو تشعرون» «أفلا يسمعون» «أنما يتذكر أولو الالباب» وهلم جراً

وقف القرآن الكريم فى جميع مقاماته لدى ما اقتضته طبيعة الدين الذى جاء به فأذا دعا ألى عقيدة أو ركن من أركان الدين تجافى عن الالزامات التى لا تحيط بها

العقول ولا تدركها الافهـام . وكلما همّ بتلقين اصل من أصوله بدأ بالمقدمات النظرية ثم ينتهي بالتحذير من جحودها عنادا وكفرا وذلك (كما يقول) في آية « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة » وآية « لكيلا يكون للناس على الله حجة »

ولم يكن منزل القرآن جلت حكمته وهو خالق الانسان ومالك القلوب والاسماع والابصار لم يكن في شيء مما أوحى من أياته الا مثال الكمال المطلق اللائق بأسمائه الحسنى التي منها العدل والحق والخبير فهو الذي لم يجعل من رسله جبارين مسيطرين ولـكن مبشرين ومنذرين « فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر » « فهل على الرسول الا البلاغ المبين » « افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » « ومانرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق » « ما انت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »

ان أول ما بدأ به القرآن في التحاكم الى العقل الإيمان بوجود الله فان القرآن ومن ورائه علماء الكلام وأصول الدين كلهم مجمع على ضروة طلب تلك العقيدة من طريق النظر والاستدلال حتى أن منهم من لم يقبل الإيمـان التقليدي بالله وان أفتى الغزالي وامثاله بقبول الايمان التقليدي من العامة والدهماء الذين لا يستطيعون البحث والنظر اما لجهلهم بوسائله أو لضيق مداركهم عن شرائطه فاكتفوا من هؤلاء بالايمان الثابت رحمة بهم ووقوفا معهم عنـد مدى موسوعاتهم وان كان تقليـديا لم يُقم على شيء من دعائم العلم الصحيح والبحث النظرى

فأما دعوة القرآن الكريم الناس الى البحث والنظر والتحاكم معهم الى التفكير والعقل فانه لا يكاد يخلو منها سورة من السور واستيعاب ذلك مما يضيق عنه هـذا المقام فلنجتزىء هنا باقتباس شيء من هذا فيما يلي من الآيات :

(١) وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ان في ذلك لايات لقوم يعقلون

(٢) ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي

تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون

(٣) أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت

(٤) وفى أنفسكم أفلا تبصرون

(٥) سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق

(٦) أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شىء

لا يتسع هـذا المقام أيها السادة لاستقصاء ما جاء من ذلك فى القرآن الكريم فلنكتف بما اقتبسناه هنا منتقلين الى البحث فى مسألة تخبط فيها كثير من الباحثين .

تلك هى ما مصير من لم يقصر فى النظر والبحث ولـكنه مع ذلك لم يستطع الوصول الى العقيدة الحقة فى الدين ؟

للعلماء فى هذا المقام آراء مبسوطة فى الكتب المختصة بها ولا يعنيني هنا الا أن اعتمد على آيات القرآن دون ما قالوه فأستفتيها فى حكم ذلك الفريق من الناس الا أنى قبل ذلك استرعى أسماعكم الى المسلمات الاولية التالية :

(١) انه ليس فى استطاعة العقل البشرى اذا قام له الدليل الصحيح على حكم أن يرتاب فيه .

(٢) أنه ليس فى مقدور العقل البشرى أن يقول بجواز صحة أمرين متناقضين معاً .

(٣) إذا تعارض حكمان يعتمد أحدهما على الحجج القاطعة كان من المستحيل تكليف العقل أن يغلب عليه سواه .

لاحظ دين الفطرة جميع هذه القضايا الفطرية وجاء كتابه السماوى مصدقاً لها ثم جاء الخلف من العلماء يؤيدونها ولـكنهم ان اختلفوا بعض الشىء فيما عن لهم من الآراء تجدهم أجمعوا على قاعدة أنه يجب أن يؤول الى حكم العقل من الشرعيات ما ظاهره يخالف العقل .

وهل هـذا الا وقوف عند حدود المسلمات العقلية ونزول على حكم الفطرة البشرية ، وهل كان للعقائد أن تكون بالجبر والارغام ؟ أم هـل كان لدين الفطرة دين البحث والنظر أن يكلف بالمقيـدة من قصرت عقولهم عن ادراكها أو من تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن صدها ومدافعتها ؟

وهل يقول بهذا القول ذلك الدين الذى قوض دعائم الايمان بغير المعقولات وأقام على أنقاضها عقيدة الايمان اليقينى المتحصل من طريق العقل والنظر ؟

ان الله تعالى لأحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس فى طاقتهم أو أن يلزمهم الايمان بما لم يهدهم الى حجته وبرهانه . يفقه ذلك من يتدبر قوله تعالى «لـكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل»

أذا فلنعمد الآن الى سرد بعض آى القرآن الـكريم المناسبة لهذا المقام مكتفين منها بما يلى :

(١) قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم انلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟

(٢) نحن أعلم بما يقولون وما انت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد

(٣) قد بينا الآيات لقوم يعقلون . انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم

(٤) ان عليك الا البلاغ

(٥) انما أنت نذير

* * *

وخلاصـة القول ان القرآن الذى هو كتاب دين الفطرة ما كان ليأتى بما ينافى الآراء القويمة أو تنعم حكمته على العقول السليمة ولم يكن ليكلف العقل الايمان بما لا يعقل أو يحمل الجسم ما لا طاقة له به أو ان يفترض على الانسان ما ليس من موضوعات فطرته . اذا فوظيفته فى البشر رسم اقرب الطرق الى الهداية وحفظ العباد عن مواطن الهلكة التى يغشاها طلاب الحق والحقيقه لا من طريق الوحى بل من طرائق التجارب ومصارعة شياطين الإنس من الحكام الجائرين وعصابات رجال الدين

المضلين . ولنا على ذلك ما نشاء من الادلة والشواهد لننظر كيف ومتى صحت عزيمة الامم الغربية ازاء الطلاق وتحريم الخمر والقمار وكيف ومتى تحررت فيهم العقول البشرية وأبيحت حرية التفكير والنشر وتقررت بينهم حقوق الانسان . سائلوا الثورات الدينية والسياسية تنبئكم مبلغ ما أريق فيها من الدماء وأزهق في سبيلها من الارواح . سلوها تصف لكم فواجعها وأهوالها وما أصاب الامم من شرورها ونكباتها.

هذا ويتصل بهذا المقام كلام في الردة لا بد من بسطه في اجتماع آخر لضيق الوقت الحاضر فانرجئه الى قابل لنستقصي دقائقه وأدلة ما يعن لنا فيه من الرأي وسنضم الى ذلك كلمات جديرة بالتدبر في موضوعين آخرين هما (١) موقف القرآن الكريم باعتباره كتاب دين الفطرة ازاء المعجزات والخوارق (٢) مناقشة ناموس النشوء والارتقاء وقوانينه ازاء الادلة التي أقامها القرآن ودعا الى النظر فيها بالاستدلال على وجود الخالق جل وعلا ثم نختم ذلك بنبذة في موضوع القرآن ازاء التكليف العيني وحرية الوجدان الفردي .

المحاضرة الثالثة

موقف القرآن الكريم ازاء المعجزات

سادتي:

لست هنا في مقام المتعرض للبحث في أمر وجود المعجزات وخوارق العادات اثباتاً أو نفياً ولا أنا في مقام المعرف بكنهها المحصي لانواعها وأقسامها فان شيئاً من ذلك ليس مما نقصد اليه اليوم ولكن الغرض الذي نرمي اليه في بحثنا الحاضر هو موقف القرآن الكريم ازاء المعجزات والخوارق . ذلك لنعلم هل يرى فيها القرآن ما رآته

الاديان الاخرى من اعتبارها أسساً للعقائد الدينية وآيات قاطعة تكفي أن يعتمد عليها الرسل والانبياء في افحام المتحدين لهم من الامم التي يرسلون اليها ؟ أم هل يرى في طبيعتها وقوة حجتها مع دعوته الى التعقل وحضه على النظر والتدبر — ما يخرجها عن دوائر الادلة العقلية والبراهين البينة القطعية الملزمة للخصوم بما تقصد له من النتائج ؟

فلا يلتبسن الامر على حضراتكم ولا يغيبن عن أبصاركم هذا المقصد الذي وقفنا عليه مقامنا اليوم فيكم .

سادتي :

امتاز الاسلام من بين الاديان كما أسلفنا غير مرة بانه دين الفطرة والعقل كما امتاز رسوله من بين الرسل بأنه الرسول الفطري الذي أرسل بالحق والهدى بشيراً ونذيرا فميزان صحة هذا الشرع المنيف، وقسطاطه المستقيم، هو أن جميع ما جاء به من الاحكام والمراسم . وضروب المواعظ والارشاد ، ليس منها ما ينافر العقل الصحيح ، ولا تأباه النفوس السليمة . إذاً فما كان له أن يتأيد بما ليس من حدوده ، ولا أن يطابق ما ليس على شاكلته .

كذلك جاء القرآن الكريم بهذا الدين . دين العلم والحكمة . دين البيان والبرهان . ولكن الاقوام الذين أنزل فيهم كانوا أهل جهالة وعناد، وعباد أهواء وشهوات . جهلوا سر الاسلام وروحه . فاستمسكوا بما استمسك به آباؤهم الاولون من طلاب المعجزات والخوارق . ولم يكن طلب تلك المعجزات من الرسول ناجما عن ترو وصدق رأي ، ولكنهم كانوا يقترحونها أما عبثاً أو عناداً أو التزاماً لما أرضعتهم الجاهلية الاولى من الضلالات والاباطيل وفقدان العلم « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ؟ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبهم . قد بينا الآيات لقوم يوقنون . انا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير »

ظل النبي عليه السلام كلما طلبوا منه المعجزات يدعوهم الى العمل بمقتضيات الفطرة ، ويرشدهم الى كنه وظيفته النبوية . وما هي سوى الهداية الى السبيل القويم وارشاد الناس قاطبة الى ما فيه الخير والسلامة فى معاشهم ومعادهم « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم أنى ملك إن اتبع الا ما يوحى الى. قل هل يستوى الاعمى والبصير افلا تتفكرون »

رأى القرآن أنه لو كانت المعجزات الخارقة للعادة كافية مقنعة لما كذب بها الاولون بعد إذ الحوا فى طلابها . وأجيبوا اليها فرأتها أبصارهم رأى العين . ولكن عدم وجود صلة عقلية بين تلك الآيات وبين ما اريدت له من اثبات رسالات الرسل كان من نتائجه القريبة انه لا تكاد تنزل الآيات اطلاباً بها حتى يسارع الى نفوسهم الشك فيها بعد الاصرار على طلابها واللجاج فى استنزالها فمنهم من يراها من انواع السحر ، ومنهم من يكذب بها بغيا وعدوا « وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله وما يشعركم انها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون . ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون »

ولو أن جهل أولئك الاقوام كان جهل المستفيد المتدبر المستهدى لما أصروا على طلاب ما قد طلبه أسلافهم ملحفين ثم تولوا عنه بعد إذ جاءهم مدبرين مكذبين . ولكن كان ذلك منهم جهل عناد واعنات ولهذا لم تفدهم هدايات القرآن الكريم ولم تزدهم بيناته الا عتوا واستكبارا « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » ، « ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا إلا سحر مبين »

يقص علينا القرآن فى غير موضع انه طالما كذب المشركون وأهل الكتاب الرسول عليه السلام ، وامعنوا فى اعناته وايذائه ، ولجوا فى زعمهم انه لو جاءتهم آية ليؤمنن بها. كما يقص علينا انه لو كانت المعجزات الخارقة من البراهين التى لا يفر المعاند من الخنوع لها لأمد الله بها رسوله ، ولأيده بما لا يحيط به من الحصر من ضروبها . ولكن علمه الله ان هذه الآيات قد نزلت بمن قبلهم فظلموا بها ، واستنكرتها انفسهم بغيا وعلوا . ولهذه يبين لنا فى صراحة ووضوح ان الله سبحانه وتعالى أبى ان يؤيد هذا الدين إلا بالمعجزة التى لا تنافر فطرته ، ولا يقوى معاند على معارضتها . تلك هى القرآن الكريم نفسه . « أو لم يكفهم أنا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون »

والمتتبع لآيات الكتاب الكريم يجد أن الرسول عليه السلام ما سئل معجزة من المعجزات إلا تلطف بطلابها وأرشدهم فيها الى الاخذ بأسباب العلم والهدى وسماهم تارة بالجاهلين ، وأخرى بالذين لا يعلمون. ولا نرى فى القرآن جميعه أن الرسول عليه السلام جارى أولئك الحمقى فى سبيل مطالبهم ، وجاءهم بشىء من المعجزات التى سألوها وقد جاء هذا صريحا فى قوله تعالى « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالايات إلا تخويفا » قال ابن جرير الطبرى فى تفسيره لهذه الآية « يقول تعالى ذكره وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التى سألها قومك إلا أن من كان قبلهم من الامم المكذبة سألوا مثل سؤآلهم فلما أتاهم ما سألوا منه كذبوا رسلهم فلم يصدقوا مع مجىء الآيات فعوجلوا فلم نرسل الى قومك بالآيات لأنا لو أرسلنا بها اليهم فكذبوا بها سلكنا فى تعجيل العذاب لهم مسلك الامم قبلهم »

وما كان مبعث الاضراب عن إجابة مطالبهم والحافهم فى سبيل المعجزات عجز الله تعالت قدرته عن تبديل شىء من ظواهره الكونية العادية . ولكن علم الله منهم ما علم من آبائهم الاولين لجاج فى الطلب ، وجنوح عن التصديق وجهل بمكانة دين الفطرة ، وضلال عن ركنه المتين وهو مطابقته التامة لمقتضيات العقل السليم

« وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه !! قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن اكثرهم لا يعلمون » وقد أسلفنا أنه لو كانت دلالة المعجزات الخارقة للعادة على الرسالة أو النبوة قطعية اقناعية لما امن المعاندون فى تأويلها تارة وانكارها اخرى وما قوله تعالى « ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا إلا سحر مبين » إلا لبيان هذه الحقيقة. ذلك أن الخوارق للعادة ضروب شتى . فمنها ما يظهر على أيدى المصطفين الاخيار من أنبياء الله ورسله ، ومنها ما يظهر على أيدى غيرهم من السحرة والمشعوذة ، ومنها ما يظهر على أيدى أرباب الرياضات الروحانية حتى من المجوس والمشركين .

لهذا كان من المحتملات القريبة أن يتشكك الناس فيما يقارن دعوى الرسالة من المعجزات التى يراد منها اقناع المدعوين الى صحة الرسالة . واثبات أن الرسل صادقون فى دعواهم السفارة بين الله وبين خلائقه فى تبليغ أحكامه وآدابه ولا يكفى فى التفرقة بين المعجزات وغيرها من الخوارق التى تظهر على أيدى غير الانبياء انهم مبعوثون من قبل الله الى خلائقه لتبليغهم أحكامه وعظاته . فقد عرفنا من آيات القرآن أن الكافرين كانت تأتيهم الآيات بعد اذ يطلبونها من أنبيائهم ورسلهم فتارة يقولون هى سحر مبين ، واخرى ينكرونها معاندين

فالاسلام فيما يصوره القرآن الحكيم قد امتاز عن غيره من الأديان الاخرى بانه دين اليقين والنظر ، لا دين خوارق العادات وما وراء العقل من الآيات . ذلك قوله تعالى « قد بينا الآيات لقوم يعقلون إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيرا »

فآيات القرآن الكريم لم تنزل ليقتنع بها من شغلتهم أوهامهم ووساوسهم ، وتعطلت فى حنايا جماجمهم عقولهم ومداركهم فسبحوا فى لجج من الوهم ، وحجبوا بعنادهم عن النظر والفهم ، ولكنه جاء لمن يعقلون ويفقهون ان الله لا يرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين . وان معيار صحة رسالات الرسل صحة ما يأتون به من البلاغ السماوى ، وضمان ذلك لسعادة الانسان فى حياتيه الدنيا والاخرى .

ولقد بلغ حرص الرسول عليه السلام على قومه حداً كان يكبر عليه فيه إعراضهم

عن دعوته ، واصرارهم على مخالفته والكفر بآياته . حتى كأنما هو بلا مراء مسئول عنهم وحامل لاوزارهم . فانزل الله فى تسليته واراحة نفسه من عناء الحزن عليهم وآلام الرحمة بهم قوله « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » « ان عليك إلا البلاغ » « انما أنت نذير »

ولكم شق على المصطفى (ص) انصراف قومه عن هدايته بسبب تخلف المعجزات فكانت نفسه الشريفة تطمع آونة فى أن ينزل الله شيئا من آياته مجاراة لأولئك الضالين المعاندين ولكن الله الذى أدب رسوله وأكمل عقله أراه فى آية « وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الارض أو سلّما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » أراه فى هذه الآية الكريمة أن من الجهل مجاراة الجاهلين وأن ليس للعاقل أن يحرص على الخراف الضالة من أشباه الانسان .

وهل كان للرسول عليه السلام بعد إذ بلغ رسالات الله على وجهها أن يضيق صدره بما كانوا يعرضون ، وأن يحزنه الذى يقولون أو مصيرهم الذى يوعدون . فأنهم ما كانوا يكذبونه . ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . فما عليه إذاً من حسابهم من شىء بعد اذ قام بما حُمله من التبليغ المبين « واما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فأنما عليك البلاغ وعلينا الحساب »

وهنا مبحث يجب أن نجمل الالمام به لكثرة ما خاض فيه الخائضون . ذلك أن آيات القرآن الكريم جميعها ناطقة صراحة بأنه لا إكراه فى الدين ، وان الرسول غير مكلف بشىء سوى التبليغ المبين ، والتذكير بآيات الذكر الحكيم « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » . وهل كان للرسول عليه السلام أن يقوم فى قومه مقام الجبارين فيقتلهم أو يحرقهم لمجرد اعراضهم عن دينه بعد آية « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »

فالاسلام الذى هو دين الفطرة ، ومجمع الكمالات القدسية ، والآداب الالهية ليس بذلك الذى يتذرع اليه بالقسوة والغلظة ، ويروج فى العالم بالسيوف والنيران.

ومن الاوليات المسلمة أن العقائد لا تتكون فى نفوس العقلاء بالقوة والقهر ،

ولكن لها وسائل معروفة لا تلتمس الا بها . فمنها البرهان العقلى ، والخطابة والشعر والتقليد . ولكل من هذه الانواع تأثير فى نفوس الناس بمقدار ما فيهم من العقول والتجارب والذكاء والتحصيل . وانما اعتبرنا التقليد من وسائل اليقين لما نعلمه من أن من العامة من لا يكاد يمكن زحزحته عن عقيدته التى ورثها بمحض التقليد والاقتداء ولو كانت غير معقولة ومنافرة للعقل السليم . وأقرب دليل على ذلك ما عليه النصارى من عقيدة التثليث ، وقولهم ان عيسى صلب ليفتدى اتباعه بدمه وليكفر عن العالم جميعه ما ورثوه كرها من سيئات آدم أبى البشر وهكذا من العقائد الغير البينة

كذلك من عامة المسلمين من لا يمكن أن يتطرق الريب والمرية الى عقيدته على جهله وعدم تحصيله وقصور عقله وما هى سوى قول تلقفه ممن يثق به ، أو أمة وجد عليها آباءه فاقتفى فيها آثارهم

وبالجملة ما كان للعقائد أن تتكون بالارغام والقهر . ولا للاسلام الذى هو دين البحث والنظر أن يقول بقتل من لا يدينون به ممن قصرت عقولهم عن دركه ، أو تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن صدها ومدافعتها .

أما المشركون وأهل الكتاب فقد ارتنا السنة المطهرة والقرآن الحكيم أن الرسول عليه السلام قد اكتفى منهم فى حقن دمائهم واحترام حقوقهم بالجزية اذا أبوا الاسلام يدفعونها فى سبيل حماية ارواحهم واموالهم واستمتاعهم بما للمسلمين وعليهم فهم اذا ما دفعوها كان لهم ما للمسلمين من الحقوق وعليهم منها ما عليهم. وما خولف هذا الحكم فى أرض جزيرة العرب الا لمقصد قد أتى على بيانه بيانا شافيا فيما يلى

وحسبنا فى ذلك ماروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أرى الا مسلما » . وقد أجلاهم سيدنا عمر فى خلافته وأجل لمن قدم منهم تاجراً ثلاثة أيام . أما المشركون واهل الكتاب فى غير أرض الجزيرة فقد علمنا أحكامهم ،اما أهل الردة الذين دانوا لله ، والتزموا الاسلام ، ثم ارتدوا عنه إما إلى غيره من الاديان واما لشبهات وشكوك قامت بصدورهم فصدتهم عن البقاء على شيء

من أصوله ويسمى الفقهاء جميع هؤلاء المرتدين ويفتون فيهم بالقتل اما بعد الاستتابة أو دونها على خلاف لهم فى ذلك ، أما هؤلاء فان علينا أن نبين هنا رأينا فيهم طبق ما يدل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية فنقول .

ان ذكر الردة جاءنا فى موضعين من القرآن الكريم . ففى سورة البقرة جاءت آية « ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

وفى سورة المائدة جاء قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم »

وظاهر ان هاتين الآيتين لا تدلان على معاملة أهل الردة بما أفتى الفقهاء من القتل لمجرد الرجوع عن الدين . وكل مادلت عليه آية البقرة المذكورة آنفاً . أن المرتدين مطرودون من رحمة الله تعالى . ومعنى الردة هنا على ما يظهر من سياق الآية ومن روح الكلمة أن معناها الارتداد عن الدين أى الكف عن الجهاد فى سبيله . والارتداد عن منازلة الاعداء الذين كانوا لا يفتأون يقاتلون الرسول واتباعه ليفتنوهم عن دينهم ويرجعوهم كفارا بعد اذ آمنوا .

يدلك على هذا التأويل ما جاء قبل ذلك من الآيات . قال تعالى « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام . واخراج أهله منه أكبر عند الله . والفتنة اكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا »

يستنبط من ظاهر هذه الكلمات الكريمة أنها نزلت فى قوم من المسلمين كانوا يهمون بالكف عن القتال . ويرغبون عن أن يدافعوا عن دينهم . وأن يبذلوا مهجهم وأرواحهم فى نصرته وتأييده بغضا للقتال . وضنا بالارواح . وما علموا لجهلهم

انه ليس وراء اخلادهم الى العدو وأعراضهم عن صده سوى أن يستذلهم ذلك العدو ويتعبدهم . وأن الموت الذى يفرون منه لا ريب ملاقيهم . الى ذلك يشير قوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم »

ولو أن أولئك النفر أدركوا بسهولة ماوراء هاتين الكلمتين القدسيتين من الحكم البالغة والمنافع العظيمة ، ما سألوا بعد ذلك رسولهم عن القتال فى سبيل الله خلال الأشهر الحرم . ولكن وهنت قلوبهم وتمكن حب الحياة من نفوسهم، وقصرت أبصارهم عن درك ماوراء ذلك من الذل الخالد ، والمسكنة الأبدية ، واستهانوا بأمر الفتنة فى الدين ، فجنحوا الى التسليم وإغماد السيوف سائلين الرسول عليه السلام عن القتال خلال الشهر الحرام كأنهم يريدون بذلك أن يجد لهم من تحريم هذا الشهر معذرة عن القعود عن مقارعة الأعداء وحماية دين الله من الأذى والمكر السىء .

ولما كان ذلك الرهط على ما وصفنا من الضعف والجنوح الى النزول على حكم أعداء دينهم من المشركين وأهل الكتاب جاء فى استنفارهم وحثهم على منازلة أعدائهم قوله تعالى بعد ذلك « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

ذلك حكم الله فى المسلمين أذا مافتنوا عن دينهم وقاتلهم عن البقاء عليه أعداؤهم. وما جزاء من يجبن عن لقاء عدوه ، ويرغب عن بذل روحه فى سبيل حماية دينه وملته « إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما يعملون »

فالردة فى هذه الآية الكريمة ليست الفسوق عن العقائد الاسلامية لشبهة قامت بأنفس المرتدين ولكنها ردتهم عن نصرة الاسلام ، وتخلفهم بأنفسهم عن تأييده ، وحماية ذماره ، بينما أعداؤه لا يفتأون يناوئونه ويكيدون له ولا يزالون يحاربون رسوله والقوامين عليه .

وهذه الآية وأن لم تنص على قتل اولئك المرتدين . فقد أرتنا السنة المطهرة كيف قاتلهم الرسول وخليفته أبو بكر وعمر من بعده . وكيف نكلوا بهم اذ كفوا

عن الدفاع عنه . ثم انقلبوا خوارج عليه . يحاربونه ويقتلون أهله تأييداً للمشركين من أقوامهم وتوهينا لبنيانه بعد اذ ظهروا على عورات المسلمين ووقفوا على مواطن الضعف فيهم . ذكر صاحب الكشاف . أن أحدى عشرة فرقة من العرب ارتدت عن الاسلام : ثلاث فى زمن الرسول عليه السلام . وسبع فى خلافة أبى بكر . وواحدة فى عهد عمر . وقد كفى الله الاسلام ما أرادوه من تخذيله وتوهينه وتنقيض أركانه .

ذلك قولنا فى آية البقرة . أما آية المائدة فأن المتدبر للآيات السابقة لها فى القرآن الكريم يتبين أنها لاتكاد تخرج عن المعنى الذى نزلت فيه آية البقرة . ذلك أن قوماً من منافقى المسلمين قد وهنت قلوبهم وعزائمهم فجعلوا يخشون أن تصيب المسلمين دائرة فيظهر عليهم أعداؤهم من أهل الكتاب . هنالك جعلوا يخالطون اليهود ويسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة . يريدون بذلك أن يتخذوا لهم يداً عندهم حتى اذا كان ما حسبوا وخشوا سلموا من بطشهم وأذاهم . وفى هؤلاء نزلت الآيات :

« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فأنه منهم ان الله لايهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين »

اتخذ هؤلاء المنافقون بطانة لهم من غير المسلمين ليكونوا لهم شفعاء اذا كان ماخشوا وحسبوا ، وأسرعوا خفية الى الاندماج فى سلك أهل الكتاب لتوقعهم سرعة غلبهم وظفرهم بالنبى عليه السلام وأشياعه فكفوا بذلك عن نصرته وتأييده ومظاهرته على أعداء دينه من اليهود والنصارى . ولولا أن الله تعالى أتى للمسلمين « بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » لأصاب المسلمين من ذلك المكر السيء الذى بيته أولئك المنافقون ومن تخلفهم وارتدادهم وتوليهم عمداً عن نصرة دين الاسلام ومناصرة أهله ماقد كان يمحو آثار التوحيد ويرفع منار الشرك فى الأرض

فالارتداد فى آية المائدة كما رأيت من السياق ومن نظم تلك الآية نفسها انما أريد به تولى أولئك المرتدين عن نصرة الاسلام والتخلف عن دره الأذى عن اخوانهم المسلمين تاركيهم لغارات أعدائهم بعد اذ اتخذوا لدى هؤلاء من الأيادى مازعموا أنه وقاية لأسبابهم وعصمة لدمائهم أذا ما كتب لهم الغلب والظفر بالمسلمين

ومن الآيات التى جاءت فى هذا الموضوع واختلف فيها أهل التأويل قوله تعالى « فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أوجاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويامنوا قومهم كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها فأن لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبينا »

أى ماشأنكم أيها المؤمنون فى أهل النفاق فئتين (١) والله ردهم الى أحكام أهل الشرك المحاربين فى أباحة دمائهم

نزلت هذه الآيات على رأى فيمن تخلفوا عن الحرب فى وقعة أحد وانصرفوا الى المدينة قائلين « لو نعلم قتالا لاتبعناكم » وهذا التأويل يلحق هؤلاء المتخلفين بالفارّين من الحرب الذين تبيح القوانين الحربية فى كل زمان ومكان ودولة دماءهم. على أن الآيات السابقة قد جاءتنا بحقن دماء طائفتين من هؤلاء وهما (١) من يصلون الى قوم بينهم وبين المسلمين موادعة وميثاق وعهد و(٢) من جاءوا المسلمين وقد حصرت صدورهم أى ضاقت عن الميل الى مقاتلة المسلمين أو مقاتلة اقوامهم فلم يجعل الله بذلك سبيلا للمؤمنين على أنفس هؤلاء وأموالهم وذراريهم ونسائهم .

---

(١) تفسير الطبرى جزء ٥ صفحة ١١٢ الى ١١٨ مع بعض تصرف .

وقال آخرون بل كان اختلاف المؤمنين فى قوم من أهل الشرك كانوا أظهروا الاسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا أن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس .

فأصحاب هذا التأويل على ماوصفنا يرون أن الآيات الكريمة نزلت فى منافقين غير مسالمين ولكنهم خونة غدارون

والقول السديد الذى ارتضاه الطبرى فى تفسيره وهو الذى أراه أنها نزلت فى قوم من أهل مكة لا المدينة ارتدوا بعد أسلامهم فكانوا حربا على المسلمين مع قومهم ويؤيده قوله تعالى « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا » فأن الهجرة لم تكن فرضاً على أهل المدينة ومع ذلك فهى مقيدة باستثناء الطائفتين الواردتين فى قوله « الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم . . . . فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »

ومن هنا يتبين أنه لاعلاقة لهذه الآية بمسألة الارتداد عن الأسلام لمجرد شبهة لم يستطع ردها وفكرة عجز صاحبها عن دفعها

وكذلك يكون القول فى الآيات الكريمة (١) « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم أن الله يحب المقسطين . أنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على أخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »

على أن الطبرى وغيره يقولون بأن هذه الآيات فيما تختص بمشركى جزيرة العرب قد نسخت هى وما قبلها بآية « فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فأن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » وكذلك بآية « براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين

---

(١) سورة الممتحنة

فسيحوا فى الارض أربعة أشهر » اذ جعل الله لهم أربعة أشهر يسيحون فى الأرض أى أرض الجزيرة وأبطل ما كان قبل ذلك من الاحكام بالنسبة لهم

ذلك ماجاء فى القرآن الكريم فلننتقل بكم الى ماورد فى السنة فى هذا الباب فنقول

ان الأحاديث التى وردت فى هذا الباب كثيرة وجلها من الآثار المروية عن عمر أمير المؤمنين وعلى بن أبى طالب وابن عباس رضى الله عنهم أما ماعزى الى الرسول عليه السلام فى ذلك وصح سنده فقليل جداً ومنه أن قد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل المرتدين المحاربين

روى فى ذلك البخارى حديث النفر من عكل إذ قدموا على الرسول عليه السلام فأسلموا فاجتووا المدينة فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها ففعلوا فصحوا فارتدوا وقتلوا رعاتها واستاقوا الابل فبعث فى آثارهم فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم لم يحسمهم حتى ماتوا

وورد هذا الحديث لغير البخارى مع بعض تغيير زهيد

ولا مراء أن ذلك الحديث صحيح السند والمتن ولكن ذلك النفر من عكل فضلا عن ردتهم كانوا من أولئك الخائنين المحاربين الذين يسعون فى الأرض فساداً المنطبق عليهم آية « أنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » فلم يكن منشأ مافعل الرسول (ص) لهم طروء شبهة لهم أو هنت فيهم عقيدة الاسلام أو حجة أرتهم صحة ما كانوا عليه من عبادة الاوثان ولكن لما رأينا من ارتدادهم الى محاربة المسلمين وايذائهم ومحاولة اللحاق بأقوامهم لمناصرتهم ومؤازرتهم فهم خائنون ومحاربون وساعون بالفساد فى الارض . تنطق بذلك كله عبارات الحديث المروى آنفاً عن البخارى فى شأنهم

أما غير المحاربين من المرتدين فللعلماء كلام طويل فى جزائهم فالجمهور من الفقهاء يقولون بقتل المرتد والمرتدة عملا بعموم حديث (من بدل دينه فاقتلوه) . وخصه الحنفية بالذكور وتمسكوا بنهى الرسول عن قتل الأناث . وأما جميع ماورد من الاحاديث فى قتل الرسول لبعض النساء المرتدات فأسانيدها ضعيفة بل لقد قال

ابن الطلاع فى الأحكام (١) أنه لم ينقل عن الرسول عليه السلام أنه قتل مرتدة .

وجمهور الفقهاء وأن قالوا بقتل المرتد اختلفوا فى أمر استتابته قبل القتل فمنهم من أوجب أن يستتاب أولا فان لم يتب قتل وذهب الحسن وطاوس وأهل الظاهر وكثير غيرهم الى القتل فى الحال . قال الشوكانى فى نيل الاوطار وعليه يدل تصرف البخارى فانه استظهر بالآيات التى لاذكر فيها للاستتابة والتى فيها أن التوبة لاتنفع وبعموم قوله (من بدل دينه فاقتلوه) ويرى النخعى أن المرتد يستتاب أبداً (أى فلا يقتل)

تلك أقوالهم فى هذا الباب ولهم تفصيلات كثيرة لاحاجة الى استيعابها والذى نراه فى ذلك قد يخالف ماقالوه من وجوه ولكن لاحرج علينا فيما نرجو مادام عمدتنا فى ذلك كتاب الله الكريم وسيرة الرسول عليه السلام .

وخلاصة رأينا فى ذلك أن القرآن الكريم لم ينص فى آية ما على قتل المرتدين عن دين الاسلام الى دين آخر على النحو الذى شرحناه فى تفسير آيتى الارتداد السابقى الذكر . وأما الآيات التى سردها البخارى (٢) واستدل بها على وجوب قتل المرتد فوراً فليس شىء منها فيما نرى جاء نصا فى القول بالقتل ولا فى بيان حدود الردة وكنهها والتعريف بها ولقد نستوفى الكلام فيها بعد بما لاغبار عليه بيد أنه يجمل بالباحث أن يتدبر المقدمات الآتية قبل استنباط حكم قاطع فى هذا الباب

أولا — أن القرآن ليس فيه نص قاطع على أن المرتد بالمعنى الذى يريده الفقهاء يقتل

ثانياً — أن لبدء ظهور الاسلام من الأحكام ماليس لغيره . ذلك أن المرتدين عن الاسلام يوم بدأ رسولنا الأكرم الدعوة الى التوحيد كانوا يعودون الى ما كانوا عليه من اليهودية أو النصرانية أو الوثنية وكانوا إذ ذاك لاجرم يلحقون بأقوامهم ويحاربون المسلمين فى صفوفهم أو يظهرونهم على عوراتهم فارتداد من كانوا يرتدون

---

(١) فتح البارى — جزء ٢١ صفحة ٦٣٦

(٢) الجزء الثانى عشر من البارى صفحة ٢٣٦

اذ ذاك عن الاسلام لم يكن لمجرد الخروج عن هذا الدين ولكن كان دائما مشفوعاً بمظاهرة من يلحقون بهم من أقوامهم .

والمستقرىء لأحاديث الباب لايكاد يجدها تخرج عما قلنا فمعاملة رسولنا الأكرم وخلفائه من بعده للمرتدين تلك المعاملة كانت فيما نرى لانهم ينقلبون خائنين محاربين لله ورسوله والمسلمين . وأننا لنرى اليوم أن الفار من الحرب أو الملتحق بجيوش العدو المحارب لحكومته يعتبر خائنا ويقتل من فوره ولو لم يرتد عن دينه فما بالنا لاندرك سر قتل الرسول وخلفائه للمرتدين عن الاسلام الذين أن لم يقتلوا اشتدت بهم الفتنة وظاهروا قومهم على المسلمين وكشفوا لهم عن عورات هؤلاء ودلوهم على مواطن الوهن فيهم .

ولقد كان منهم طائفة يؤمنون بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ويكفرون آخره لعلهم يرجعون . فالمرتدون فى صدر الاسلام كانوا فى الغالب ممن دخلوا فى الاسلام نفاقا وخرجوا منه للفتنة وكشف الاسرار .

ثالثا — أن الردة التى جاءت فى آيات البقرة والمائدة وغيرها كانت كما علمنا ارتدادا عن نصرة المسلمين والاشتراك معهم فى محاربة أهل الكتاب لما كانوا يخشونه من ظهور هؤلاء على المسلمين وظفرهم بهم يوماً ما فارادوا بذلك أن يتخذوا عندهم من الايادى مايحقنون به دماءهم ويعصمون أرواحهم .

رابعاً — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا كيف نتصرف فى الحوادث ونقف عند حدود مقتضيات الاحوال . ولنا من سيرته السامية وأعماله الحكيمة آلاف من الأدلة والآيات ولكننا ابتلينا بالجمود وضعفنا عن ادراك أسرار سيرته ودينه الفطرى ووقفنا عند حدود الالفاظ وأخذنا نتقيد ببعض الروايات . ولقد كان لنا من حكمة رسولنا الحكيم وعلمه الالهى مايرشدنا الى أيسر السبل وأقومها لو كنا نعقل . ولنضرب لك أيها المتدبر المفكر فى ذلك بعض الآيات والشواهد

بدأ النبى صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى الاسلام وهم على مانعلم من الجهالة والضلال والشرك المبين فكان عليه الصلاة والسلام يتدرج بالاقوام رويدا رويدا كما كان يلين لهم من جانبيه ويتساهل فى مطالبهم تأليفا لقلوبهم واستمالة لهم الى التوحيد . ومن

ذلك ما روى عن نصر بن عاصم الليثى عن رجل منهم أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم على أن يصلى صلاتين (لاخمسا) فقبل منه . رواه الامام احمد (١) وفى لفظ آخر له على الا يصلى الاصلاة فقبل . وعن وهب قال سألت جابرا عن شأن ثقيف اذ بايعت فقال اشترطت على النبى الاصدقة عليها ولاجهاد وانه سمع النبى عليه الصلاة والسلام يقول بعد ذلك سيتصدقون ويجاهدون . رواه ابو داود

وعن أنس أن رسول الله قال لرجل اسلم . قال أجدنى كارها . قال اسلم وان كنت كارها . رواه احمد . قال الشوكانى بعد أن سرد هذه الاحاديث فيها دليل على أنه يجوز مبايعة الكافر وقبول الاسلام منه وان شرط شرطا باطلا وانه يصح اسلام من كان كافرا

فعل ذلك الرسول الحكيم لما يعلمه من أن من المنفرات تكليف المدعو جميع احكام الله فى آن واحد وانه لاحرج أن يشترط المدعو ما شاء من الشرائط ولو باطلة فان دخوله فى الاسلام على اى وجه جدير أن يوجد فى نفسه من الميل للاسلام والعطف على اخوانه المسلمين مايدفعه لاجرم الى بذل ماضن به ونقض ماقدم فى بيعته من الشرائط . ينبىء بذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث جابر المذكور آنفا « سيتصدقون ويجاهدون »

فانظر كيف فعل ذلك الرسول الحكيم فراعى مقتضيات الأحوال وأتى بما هو الاصلح للاسلام والمسلمين

وناهيك بما فعله فى صلح الحديبية من قبوله شرائط قريش الاربع ورضاه أن يرد الى المشركين من يجيئه منهم مسلماً على ألا يردوا هم من فر اليهم من المسلمين . فعل ذلك رسول الله لما فيه من الاسرار والحكم البالغة مما لم يفقهه الذين شهدوا ذلك الصلح من الصحابة الا بعد أمدغير قصير

لقد كان الاسلام يوم بدا غريباً ضعيفاً فكان لابد من اتخاذ كل مايمكن من ضروب التحوطات والشدة حتى يشتد ويقوى ويسلم مما كان يراد به من الفتنة والأذى

---

(١) نيل الاوطار جزء ٧

ولقد اقتضت حكمة الحكيم العليم أن يقيم الرسول الكريم عليه السلام فى ذلك من الاحكام ما يضمن سلامة الاسلام فلما أيد الله دينه ورفع منار كلمته كان لا بد أن تكون هناك احكام أخرى تناسب ما صار اليه المسلمون من القوة والمنعة وما أصبح فيه الاسلام من السلامة والامان . من ذلك ما رواه البخاري بسنده(١) عن ابن عمر ان رجلا جاءه فقال يا أبا عبد الله الا تصنع ما ذكر الله فى كتابه « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما (الاية) فما يمنعك الا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه فقال يا ابن اخى ! أعير بهذه الاية ولا اقاتل احب الى من ان أعير بآية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها) قال فان الله يقول (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله اذ كان الاسلام ضعيفا وكان الرجل يفتن فى دينه اما أن يقتلوه واما أن يوثقوه حتى كثر الاسلام فلم تكن فتنة

فانظر كيف كان عبد الله يفسر الفتنة ويفرق فى الاحكام بين عهد الاسلام بالقلة والضعف وما صار اليه امهده من العزة والمنعة .ولعل ما ذكرناه هنا هو سر قول الامام النخعى بان المرتد يستتاب ابدا ولا يقتل . ذلك ان الاسلام على عهده ما كان لتضره ردة المرتدين بعد أذ أصبح فى مأمن من أن تؤذيه مكايد المشركين ومن يرتدون اليهم من منافقى المسلمين .

ولو كان حديث (من بدل دينه فاقتلوه) الذى رواه البخارى وغيره من أئمة الحديث عامة على نصيئته غير مختص بزمان ولا معقود بمقتضيات غير مطردة ما وسع النخعى ولا غيره مخالفته .

واذ مهدنا امامك السبيل بتلك المقدمات التى أسلفنا فاعلم أن الذى نراه أن المرتد اما أن يرتد عن دينه فلا ينضم الى المدافعين عنه من المسلمين ولا يقف منهم موقف المسالم غير الخائن كما كان يفعل أولئك الذين نزلت فيهم آيات البقرة والمائدة فهذا لا جرم يقتل . وأصرح ما نزل فى ذلك قوله تعالى (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم .كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم

(١) تفسير ابن كثير جزء ٤ صفحة ٣١٦

السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا)

ومثل هذا القسم من يرتدون ويحاربون كما سبق فى حديث النفر من عكل . ولا ريب ان المرتد فى هذين القسمين منافق خائن أو محارب فلا بد أن يقتل من فوره.

وكذلك تفعل الممالك جميعها فى الوقت الحاضر مع امثال هؤلاء من افراد شعوبهم ورعاياهم .

ويلحق بهذا النوع الزنادقة الذين كانوا على عهد على بن ابى طالب رضى الله عنه فقد روى من طريق عبد الله بن شريك العامرى عن ابيه قوله لعلىّ ان هنا قوما على باب المسجد يدّعون انك ربهم فدعاهم فقال لهم ويلكم ما تقولون ؟ قالوا أنت ربنا وخالقنا ورازقنا. فقال ويلكم انما انا عبد مثلكم. آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون. ان أطعت الله اثابنى ان شاء وان عصيته خشيت أن يعذبنى. فاتقوا الله وارجعوا فأبوا فلما كان الغد غدوا عليه فجاء قنبر فقال قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام. فقال أدخلهم. فقالوا كذلك فلما كان الثالث قال لئن قلتم ذلك لاقتلنكم بأخبث قتلة فأبوا الا ذلك فقال ياقنبر ائتنى بفعلة معهم مرورهم فخدّ لهم أخدودا بين باب المسجد والقصر وقال احفروا وابعدوا فى الارض وجاء بالحطب فطرحه بالنار فى الاخدود وقال انى طارحكم فيها اوترجعوا فأبوا أن يرجعوا فقذف بهم فيها .

وكان يقال لهذه الطائفة سبئية نسبة الى كبيرهم عبد الله ابن سبأ كان أظهر الاسلام وابتدع هذه المقالة . وانما ألحقنا هؤلاء الزنادقة بالقسمين قبلهم لانهم ظهروا والاسلام غض حديث العهد بالوجود كثير الاعداء والمحاربين فلو أن على بن ابى طالب ابن عم الرسول وختنه وأصل العترة النبوية أبقى عليهم أو خفف العقوبة عنهم لانمحت آيات التوحيد عن ظهر الارض ولما وجد فى العالم أحد من المسلمين ولكان للناس من على بن ابى طالب ما كان لليهود من عزير . أما أمثال هذه الفرق اليوم وقد اشتد ساعد الاسلام وقويت شوكته وتبينت الناس حقائقه واصوله فلا خوف عليه منهم ولو كثرت جموعهم وعظم سلطانهم اللهم الا اذا أخذوا يفتنون المسلمين عن دينهم بالقتل

أو السجن أو التنكيل فهنالك يحق على المسلمين مناهضتهم وتقتيلهم أينما ثقفوهم .

وأما الذين لم يرتدوا عن تأييد الاسلام ولم يخرجوا عليه ولم ينضموا الى صفوف أعدائه ولم يخونوه في شيء ولكن أضلتهم بعض الشبهات التي لم يستطيعوا لها ردا والشكوك التي لم يقووا على مدافعتها بالحجة والبرهان فان سبيلهم فيما نرى الا يعتبروا كالمرتدين ما داموا لم يهتدوا الى الصواب ولم يقم من أهل الذكر والعلم من يبين لهم فيها الرشد من الغيّ

والله سبحانه وتعالى أحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس في طاقتهم أو أن يلزمهم الايمان بما لم يهدهم وجه الصواب فيه . يدرك ذلك من يفقه سر قوله تعالى (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) فان الرسل قد بعثهم الله لخليقته وكلفهم البلاغ المبين . اذاً فلا تكليف الا حيث البلاغ المبين . فاذا ابتلى العامة بأمثال بعض علماء هذا العصر الجامدين وازدحمت الشكوك والشبهات على صدور النابتين من المسلمين فكيف يؤاخذون إذا ضلت أحلامهم بعداذ فقدوا أركان الاسلام وأساطين علمائه الذين يقتدرون أن يدرأوا الشبهات ويهدوا الهائمين في أودية الضلالات

أقول ذلك بعد إذ رأيت من الشبان المسلمين من كانوا يطرقون أبواب شيوخ العلماء ويغشون مجالس أئمة الاسلام لا لغرض سوى استفتائهم في بعض أصول الاسلام والفرار الى معاقل علمهم وهدايتهم يتقون بها هجمات جيوش الشكوك والاوهام حتى اذا استفتحوا عليهم بكلمة واحدة في ذلك السبيل سمعوا من فحشهم وسبهم وتقريعهم ما كان يصدر أولئك الحائرين عن مجالسهم وقد تنازعتهم ضلالات الحيرة ودفعتهم معاملة الشيوخ الى اليأس من بلوغ غايتهم وصلاح عقيدتهم

ونحن على ثقة انه لو درس شيوخ المسلمين العلوم الكونية وعرفوا أسرار سنة الله في خليقته لما كثرت الملاحدة وفشت المناكر . فكيف لنا مع جمود المتصدين للفتيا والارشاد . وكيف لنا أن نؤاخذ النشء الصغار وغيرهم ممن لم يستوعبوا أصول الدين ولم يهتدوا الى صواب اليقين وهم عاجزون عن مدافعة مالا قبل لهم به من غارات الشكوك والشبهات

بلى لقد تعرض لنفس المسلم شبهة لا يستطيع دفعها على حين لم يقصر فى التنقيب عن وجه الصواب والحق فيها فهل هناك دين غير الاسلام يحكم بنجاة هذه النفس الحائرة ويقول ما قال القرآن « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » « لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها » « لا إكراه فى الدين » ؟ أفلم يعتبر القرآن التفكر فى ملكوت الله من كبريات العبادات يزدلف بها إلى الله؟ أولم يقل رسوله صلى الله عليه وسلم « تفكر ساعة خير من قيام ليلة » إلى نحو ذلك مما علم المسلمين أن من أعظم العبادات قراءة كل ما يعين الانسان على معرفة حكم الله فى خلائقه وإدراك البدائع من صنعته ككتب الطب والتشريح وعلم الحياة وعلم وظائف الاعضاء وعلم النفس وأشباهها؟ أليس ذلك يخول المسلم متى أحسن النية أن تكون اكثر أيام تحصيله للعلم وإعماله للفكر عبادة لله تعالى وتعرفا إليه بما يفهم من بدائع آثاره ومايدرك من دقائق صنعته؟ اذاً فالانسان فى نظر القرآن كلما ازداد علما وبحثا ازداد من حظيرة الله تعالى اقترابا وحظا .

« * * * »

المحاضرة الرابعة

مقام القرآن الحكيم

آزاء العلوم والمعارف الكونية

سادتى : كثيراً ما نسمع من خطبائنا العصريين ونقرأ فى صحائفنا ومجلاتنا الحديثة ما يمثل لنا العلم والدين كدولتين فى حرب قائمة دائمة لا يستقر لها صلح ولا تتخللها مهادنة

يلهج بذلك أشباه المحصلين وتلاميذ آثار الغربيين ممن يطيرون لكل هيعة ويفتنون بكل بدعة ولو كبلت عقولهم بأغلال التقليد واحتبست أفهامهم عن التدبر والتفكير

ليت شعرى أفما كان الاجدر بمن منحوا فطرة الانسان ، ورفعوا عن مراتب العجم من الحيوان أن يتساموا بعقولهم ويتحاكموا الى بصائرهم فيما يعرض لهم من النظريات ؟ بلى ولكنهم أبوا الا أن يجمدوا على الثقة بالمباحث والاقوال الغربية دون سبر لأغوارها ولا تفكر فى مبلغها من الصدق ، وما يتبع أكثرهم فى ذلك الا الظن وما تهوى الأنفس . وليت هؤلاء يكتفون بمخزى الجمود أمام الحديث فيقفوا أزاءه سلبيين صامتين لا يبدون حراكا ولا ينتحلون فهماً بل تراهم على ضلالهم الكثيف وجهلهم الفاحش يملأون الفضاء بالدعاوى الجوفاء ويدعون لأنفسهم علوم الارض والسماء ثم لا ينفكون يقذفون مع ذلك برجوم تهكمهم وسخريتهم قديم المأثورات ويغضون أبصارهم حتى عن آياتها البينات

جهل ذلك الرهط من المتفيهقين تاريخ الامم الغربية ومصدر تقلباتهم وتطوراتهم التى تعاقبت فيهم ، جهلوا ما انبعثت عنه أحكامهم وأقوالهم فى مختلف المواقف الدينية والسياسية والاجتماعية ، جهلوا جميع ذلك كما جهلوا اللباب من أمر دينهم وبيض الصحائف من تاريخ أسلافهم ، وليتهم مع ذلك الجهل المؤكد أنصفوا

الطائفتين فسوّوا بينهما حباً أو كرهاً وانتظموهما فى سلك واحد من المعاملة الحرة البريئة من شوائب التحيز ولكننا نجدهم إذا عرض لهم شىء ليس بغربى لوّوا رؤوسهم وثنوا أعطافهم وقالوا فى عنجهية شوهاء ونعرة حمقاء « لا حاجة لنا بما لم يصدر عن أوروبة ، ولا نولى ثقتنا من لم يرد مناهلها ولم يتخرج على أساتذتها »

وانه لحسب أحدهم اذا ما شئت اقناعه أن تقول له « بذلك يقول المستر فلان الانجليزى ، أو المسيو فلان الفرنسى ، أو الهر فلان الالمانى » . فليكفينك هـذا وحده مشقة التدليـل وتوفير البراهين وليسلسلن لك بمجرد ذلك ما شئت من أعنة كل عصىّ شموس

ولو أن أسارى التقليد ممن تصدروا لزعامة الحركة الفكرية والنهضة العلمية كانوا طلقاء العقول أحرار التفكير لما ابتاعوا من محصول العقول الغربية الا ما أمنوا غشه واستوثقوا من نقاء معدنه وكمال صلاحه بعد إذ عرضوه على محك الاختبار وناقشوا أصحابه دقيق الحساب وميزوا ما فيه من النافع والضار ، ذلك كيلا يقبلوا قولا ولا يرفضوا رأياً الا وأفئدتهم مطمئنة وأقدامهم ثابتة ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة . ولكنهافيما نرى نوبات عصبية وغضبات جاهلية ملكت أعنة قلوبهم ولعبت بموازين أفهامهم فأطلقت ألسنتهم بالاراجيف وسولت لهم كل رأى سخيف

***

زعموا فيما روينا لكم آنفاً معاداة الدين للعلم وانه لا يجوز أن يقف الدين فى سبيل الرقى العلمى مهدد به بأنه اذا لم يتنح عن سبيله فستكون الهزيمة المنكرة مصيره المؤكد

كذلكم يقولون ايضا فيما يرجفون انه لا بد من فصل الدولة عن الدين وان حرية الفكر الانسانى تستلزم انقلابه ما دياً طليقاً لا يتقيد بشيء من قيود الاديان

هذه هى الدعائم التى يقيم عليها أولئك الحائرون والاباحيون فى هـذه البلاد وأشباهها صروح نهضتهم ومعاقل دعوتهم

ولقد بينا فى كثير من (محاضراتنا) مبلغ ضلال احلامهم فى تلك المقالات وخيبة ما بيتوا من الـكيد السيء لاهل القرآن ، كما أوضحنا فى اكثر مقاماتنا انه لو كان لذلك الجيش المفتون من الزارين والمستخفين والطاعنين ، لو كان لهم علم

باصول القرآن ووقوف على ما مكّن للعقل والوجدان والقول من قواعــد الحرية الصادقة فى سائر شعب الحياة لما زلت لهم قدم فى مزالق التقليد ولفقهوا جلال ذلك الكتاب الذى يقول « لا تقف ما ليس لك به علم » والذى يقول « فاسألوا اهــل الذكر ان كنتم لا تعلمون »

سادانى الاكرمين : سيقتادنا التعرض لتحليل هــذه المقالات ومناقشتها والرجوع بها الى الاسباب التى انبعثت عنها لدى الامم الغربية والعلل التى بررت رواجها فيهم وبقاءها بينهم ، سيقتادنا تفصيل ذلك كله الى الخروج بعيدا عن دائرة موضوع (محاضراتنا) الحاضرة فكان لزاما ان نقصر القول هنا على ما سيكفيكم أولئك المستهزئين وما سيريكم ان أولئك الادعياء ما كانوا فيما فعلوا الا كالشعراء يتبعهم الغاوون ألم تروا انهم فى كل واد يهيمون وانهم عن العلم الصحيح محرومون

***

معلوم أيها السـادة ان الحكمة فى ظهور الانبياء والرسل (ص) انما هو دعوة اممهم الضالة الى اصلاح مافسد من أمرها ومعالجة ما مرض من أخلاقها وكبح ماجمح من أهوائها وشهواتها .

ولقد جاء اكثر الانبياء والمرسلين برسالات خاصة ، كما جاء بعضهم لمعالجـة أمراض معينة فى أقوامهم ، جلّها فيما يحدثنا القصص اجتماعى وخلقى ولم يكن فى موضوعات رسالات اكثرهم البحث فى العلوم الكونية والظواهر الطبيعية ، بل ولا النظم والقوانين المدنية .

وإذا كانت رسالات اكثر الانبياء انقطعت بانقطاعهم ودرست معالمها بفنائهم حتى لم يبق سبيل الى ضبط ما جاء منها ضبط احصاء واستيعاب فان لنا أن نستأنس بتاريخ رسالة سـيدنا عيسى ابن مريم (ص) فانها مرآة غيرها من سائر الرسالات التى سبقتها .

ظهر المسيح (ص) فى جزء من المملكة الرومانيـة ذات القوانين المدنيـة والدساتير السياسية ، بيد أنه ظهر فى أمة اليهود بعــد إذ انصرفوا الى عبادة

أحبارهم وتقطعت فيهم أواصر الارحام وتفسخت الاخلاق عن النفوس وتفشت المنكرات واعوز الناس الرحمة والحنان حتى لم يكد يبقى لهم فى الحياة من مطلب سوى الملاذ البهيمية والمآرب الشهوية .

لقد كانت أمة المسيح من اليهود على تلك الحالة يوم جاءهم بالتنفير من زخرف الدنيا وتزهيدهم فى باطل متاعها وعند ما ضرب لهم الامثال والقصص ليقيم الحرب على الشهوات والماديات التى كانت مالكة لأعنة قلوبهم ومضللة لعقولهم ونفوسهم

ولقد كان من تعاليم أولئك الانبياء والمرسلين ومن حذا حذوهم من المصلحين ما جاء عقوبة لأممهم المتفحشة زجراً لهم عن رجس الشهوات التى عكفوا على مرضاتها وأسلموا مقاليدهم لها حتى أنستهم أنفسهم وهبطت بهم الى مراتب سائر الحيوان الاعجم . فللعقوبة والتنكيل كان ما جاءوا به من الحض على الرهبانية والترغيب فى الخصاء والحث على افناء القوى العقلية والبدنية بالصوم المرهق والتعذيب بالتحرج عن أكثر مطالب الحياة . وما كانت أمثال هذه التعاليم فى سبيل المصلحة العامة العمرانية ولا مقصودة لغير من نزلت فيهم من أشرار الناس وعبدة الشهوات والا فهى منقصة للنسل ، مذهبة للعمران ، سبيل الى الخراب والزوال . ولذلك يمكن القول بأن رسالات السيد المسيح وأكثر من تقدمه من الانبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام كانت فى جوهرها قاصرة على قسم الجهاد النفسى والتربية الخلقية كما انها جاءت لطوائف من أقوامهم بعقوبات وزواجر بلغت فى شدتها وفداحتها مثل الذى بلغه هؤلاء من الفساد والفجور .

ومع ذلك لم يكد المسيح وكثير غيره يأتون الناس فى الاخلاق بدساتير تبين الخير من الشر وتوضح للناس ما يفعلون وما لا يفعلون ، بل لم يكادوا يأتون بشىء كبير فى باب العقائد الالهية . أفلا نذكر كيف استأثر رجال الدين بعد السيد المسيح بالامر وكيف اختصوا أنفسهم بتقرير العقائد وموضوعات الوجدان الانسانى وكيف وضعوا (طقوس) العبادات وحرموا على الناس حق تفسير كتب المهدين كما حرموا عليهم معارضة ما تأمر به الكنيسة ولو كان من غير المعقولات الى أشباه

ذلك مما ضجت الأمم النصرانية من هوله وثارت للتخلص منه ثوراتها الدموية التاريخية. سياسية كانت أو دينية. لم نر فيما سجل لنا تاريخ الأديان السماوية دينا تجاوز تلك الحدود التي وصفنا فتناول شيئاً من الشرائع المدنية أو علماً بالشئون الكونية سوى دين موسى ومحمد (ص) وذلك وان يكن فيما يخيل الينا خروجا عن الحدود العادية للرسالات السماوية الا أنه لمن تدبره لم ينزل به الروح الأمين عبثاً ولم يرسله الحكيم العليم اعتباطا ولا فضولا. ولكن كان فيمن بعث اليهم هذان الرسولان الكريمان من الشئون والأطوار ما اقتضى ان بدًّا من قبل القوى العزيز بما لابد منه فى مصارعة أفكارهم الضالة وهداية عقولهم الهائمة واصلاح شئونهم التعاملية الفاسدة.

كان بنو اسرائيل بمصر متأثرين بالتقاليد والعقائد والعلوم والعبادات المصرية فكانوا يعبدون الأوثان والصور، ويعلمون من العلوم الكونية ما كان معروفا بين الناس فى هذه الديار فلما خرجوا الى سيناء ولم يكفهم تأديباً ولا عقاباً مالاقوه فى التيه من صنوف العذاب والشدة جاءهم موسى بعد مناجاة الطور بالالواح يدعوهم فيها الى توحيد الله والنهى عن عبادة غيره ويحرم عليهم أن يشركوا به شيئاً. ولقد كان لابد أن يأتيهم بشىء من العلوم الكونية لما كان لهم من الالمام بها والوقوف على تُفَهٍ من غثها وسمينها وفاسدها وصحيحها فاذا جاءهم بسفر التكوين فانما ذلك لتبديد ما تزاحم فى صدورهم من الضلالات والخرافات المصرية والكريتية التى أبعدتهم عن العلم بقيوم الأرض والسماوات وسولت لهم عبادة الصور والأوثان وما فى الفضاء من الثوابت والسيارات. واذا جاءهم موسى مع هذا بشىء من الشرائع والاحكام التعاملية فانما جاءهم بما كان ضروريا لهم فى تدبير وسياسة أرض كنعان التى كتب الله لهم. ولو ان موسى عليه السلام عاش حتى ظهر قومه على الكنعانيين واندمج فى نطاق ملكهم ماشمله بعد موته حكم يوشع وداود وسليمان لكان فى توراته اليوم من الاحكام التعاملية والتعاليم السياسية الشىء الكثير

وهل كان فى استطاعة موسى لولا ما أمده الله به من ذلك العلم والشرع ان يعيد أقوامه الهائمين فى أودية الجهالة الى حظيرة القدس الربانيه أو يشرق على نفوسهم

الضالة بالأنوار الألهية؟ كذلكم جاءت رسالة موسى للبلاد، أما محمد عبد الله ورسوله الى الناس كافة فان لرسالته التى دامت نيفاً وعشرين عاما ولدعوته التى ستبقى ما بقى الانسان فى الأرض من الشئون والخصائص والمقاصد مالا يشا كلها فيه دين ولا تشبهها شريعة .

لا نعرض هنا لما جاء به القرآن الحكيم من الشرائع الاجتماعية والاحكام التعاملية فان هذا ليس موضوع محاضرة اليوم على اننا استوعبنا الكلام فيه وفصلناه تفصيلا فى محاضرتنا المعنونة « لماذا ظهر الاسلام فى مكة »

فأما بحثنا فى هذا المقام فانه خاص بموقف القرآن أزاء المسائل الكونية والعلوم العقلية . ولا نعنى بهذا انه جاءنا فى هذه المقاصد بما تجيئنا الكتب الفنية تبويبا وتفصيلا أو تدليلا وتعليلا . فان هذا كما هو معلوم ما كان يوما ما من المقاصد الأولى للكتب الالهية ولا من أغراض الرسالات السماوية وانما يعنينا ان نبين فيما يلى مدى ما بين القرآن الكريم والعلوم الكونية من الصلات وهل وقف كتاب الاسلام يوما ما فى سبيل رقى العلم وحرية الفكر كما يتشدق الخراصون ! أم انه على العكس من ذلك كان محرر العقول الأسيرة ومنير البصائر المظلمة ومثبت الافكار القلقة ومنعش الهمم الخامدة ومحرك الافهام الجامدة ! ! كذلك يعنينا ان نصف مقامه فى هذه الأغراض وأن نأتى على بيان بعض آياته التى لم يفسرها الا الزمان ولم يكشف دفائنها سوى ما أحدثته الحركة العقلية الجريئة التى انهزمت أمامها ظلمات التقليد ، فخفى بها عن الابصار ما كان يعد لدى القدماء علوما صحيحة ونظريات ثابتة وما كان أكثرها سوى ظنيات اخترعها الخيال والتخمين أو أساطير خرافية توارثها الاخلاف عن آبائهم الأولين

جاء القرآن بما جاءت له سائر الرسالات السماوية قبلا من التعريف بالخالق وتقرير العقائد وامهات الشرائع وأساس الأدب والاخلاق ، جاء بجميع ذلك قصداً الى هداية العالم الانسانى وارشاده الى ما يضمن له السعادة والنعيم فى حياتيه . إلا ان القرآن حينما جاء كان الناس فى جميع الارض كما هو معلوم للمؤرخين نهباً مقسما بين رجال الدين وبين المتغلبين المسيطرين من الاشراف والفوارس فأما رجال الدين فقد استرقوا من الشعوب والافراد ضمائرهم وعقولهم فما كان لاحد من أقوامهم فى تلك

العصور المظلمة أن يمضي فى شأن له إلا كما يفعل الاسير العانى عطلته السلاسل وأثقلته الاغلال وأرهقه النصَب وأنهكته الاوصاب

كذلك كان شأن الناس فى تلك القرون الوسطى يوم هبط وحى الله فى مكة بالقرآن . فاذا جاء القرآن لما مر دنا من المقاصـد التى نزلت بها الرسالات السماوية الاخرى فلقد جاء كذلكم لتحرير العقول البشرية من رق التقليد واخراج الوجدان الانسانى من نطاق الحجر الذى ضربه من حوله رجال الدين ، جاء لانهاض العقل الآدمى واستحثاثه فى سبيل التفكير والنظر . جاء يحفز النفس البشرية ويسوقها لتقرأ صحف الطبيعة وتتدبر آيات صنعتها البديعة . بغض القرآن الى الانسان كما اسلفنا رذيلة التقليد ونعى عليه الجمود على ما ورثه آباؤه الأولون أو شاءه الأحبار والربانيون حتى لقد سمي القرآن هؤلاء أرباباً لمقلديهم فى آية « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله »

ولكم عيَّر القرآن الغافلين من معطلى العيون عن الأبصار والآذان عن حسن الاستماع والأفئدة عن الفهم والتدبر بأنهم كالانعام بل هم أضل

جاء القرآن والناس فى الارض أميّ لا يعلم الكتاب الا ظنونا وأمانيّ أو مقلد ملكت فؤاده تعاليم الاحبار والرهابين وأساطير الآباء الاولين أو أباحيّ لا قيديّ استرقته الشهوات والاهواء فهو عدو لكل وازع وخصم لكل مصلح ، أو دهرى يقول أن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا الا الدهر . ثم قام بجانب هؤلاء أقوام كانوا يرون الخطر كل الخطر فى أن تستنير البصائر وتتحرر العقول وأن يعرف الناس أن الناس عباد الله ، كلهم لآدم وآدم من تراب ، وأن يعلموا أنه لا تغنى نفس عن نفس شيئاً وان الله أقرب إلى الانسان من حبل الوريد، يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون .

جاء القرآن والناس فى كل أرض كما وصفت لكم فكان لا بد له من الحيلولة بين أغوال المسيطرين المفترسين من أشباه النـاس وبين صرعى فرائسهم المسكينة تلك التى تزعجهم يقظتها ويهو لهم انتعاشها ويهدم صروح مطامعهم فيها بعثها ونشورها

ولقد كان ما شاء الحكيم الرحيم بعباده المستضعفين فى الارض فأن البعثة المحمدية لم تختم إلا والناس كافة طلقاء عقلا وضميراً ، أحرار قولا وفعلا .

بهذا الجهاد المشكور للقرآن ورسول القرآن بدىء عهد البحث والنظر وولت دولة الجمود فوطئت بذلك الاكناف للفلسفة الاغريقية وتحصيل علوم الكون العقلية بعد أن ماتت أو كادت . فهى بأهل القرآن عاشت وفى أرض القرآن نمت وفى ظل القرآن عزت وسادت

سلوا التاريخ هل لقيت من القرآن وأهل القرآن فلسفة هرقليتوس وديمقريط والكساجوراس ما لقيته هي نفسها فى بلاد الاغريق وهى مهد الفلسفة ومنبتها ؟ أم هل لقيت منهما فلسفة سقراط وافلاطون وأرسطو وارسترخوس وكليانتوس وبطليموس ما لقيته من الكنيسة الرومانية فلسفة هؤلاء الاساطين ثم فلسفة العرب بعدهم من الاضطهاد والمطاردة ؟ وهل اضطهد القرآن وأهل القرآن أمثال برونو وغاليليو وأمعنوا فيهم تنكيلا وتحريقاً لغير علة سوى أنهم بعد إذ اعتمدوا على الحس والمعاينة وتسلحوا بالآلات المكبرة والمقربة استنكروا عتيق الخرافات وأعلنوا الدعوة الى المشهودات وآذنوا بالحرب والقطيعة أصحاب الظنيات

ظهر القرآن أول ما ظهر فى أمة أمية لم تألف المباحث العقلية ولم تعرف علوم الكون والمسائل الطبيعية فلما جاءهم بما ذكر لهم من أشاراتها أو صريح عباراتها — ولم تتسع لها مداركهم بعد — ذهبوا فى أمرها مذهب التفويض والتسليم وأبوا أن يقفوا ما ليس لهم به علم فتقبلوها مؤمنين وتركوا أمر تأويلها وفهمها إلى أهل العلم آخذين بقوله تعالى « إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » وقوله « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » وقوله « وفوق كل ذى علم عليم » إلى أشباه ذلك من الآيات التي علمتهم من الله أن العقل ليس بعربى ولا عجمى وان العلم ليس بشرقى ولا غربى .

وقف السلف الصالح بتعاليم هذه الآيات القرآنية عند حدود التفويض فيما لم يعلموا حتى فتحت أبواب بلاد الروم لعقول المؤمنين بعد إذ أعدها الاسلام لاغتنام ثروتها العلمية وذخائرها الفلسفية فتفجرت لأهل القرآن عيونها النضاخة وتقدمت لأيديهم قطوفها شهية دانية، فكان ما شاء الله أن يكون لعباده المؤمنين، سبق فى كل

مضمار ، ونقابة خالصة لهم في سائر شعب الحياة، وقيادة عامة في ميادين الحضارة والسياسة والصناعة والزراعة والأدب وفنون الجمال .

أجل ! ولكن بقايا الصدر الأول المسمى بالسلف قلقت نفوسهم يوم رأوا الفلسفة الاغريقية تجد سبيلها بين المؤمنين حتى رأى الكثير فيها خطراً على دين الاسلام وحربا على تعاليم القرآن كما خفّت إذ ذاك أحلام طارت بها الأهواء والزعازع الفكرية إلى مسالك متشعبة من الشك والابتداع والالحاد حتى إذا ركدت تلك الأعاصير وثابت العقول إلى رشدها وامتحن الناس موقف القران إزاءها سكنت النفوس القلقة واطمأنت الأفئدة المضطربة إذ وجدوا في آياته المحكمة ما كان جُنة لهذا الدين ومناراً للمحصلين وحجة قائمة على الجامدين ورجوما لشياطين المرجفين من الجاحدين.

ثم أخذ أمراء المؤمنين وخلفاؤهم وهم القوامون على دين الاسلام الحامون لحماه يهتمون بأمر تلك العلوم ويترجمون الى العربية ما كان موضوعا منها باللغات الاخرى كما أخذوا يتدارسونها ويقربون من مجالسهم أساتذتها وفطاحلها ولو كانوا من غير المؤمنين . ففي ظل القرآن وصادق دعوته الحارة الى الدرس والبحث والتفكير العميق تعانق العلم ودين الاسلام عدة قرون لم تتخللها بينهما وحشة ولم يعوزها صفاء ولا سلام . وما زال ذلك الأمر قائما في البلاد الاسلامية حتي فسدت الملكة العربية وعجز الناس عن تفهم كتاب الله وادراك تعاليمه ومقاصده بمستقل مداركهم وحُرّ عقولهم . هنالك حيل بين العقول والعلوم وبالخاصة في بغداد فنصبت طائفة من الفقهاء أنفسهم للفتيا والتفسير حاجرين على المدارك ان تتحرك في ميادين المعقولات وعلى الابصار أن تتقلب في صحائف الارض والسموات. وما زال شيوخ الدين باسم الدين هنالك يستأثرون بكل أمر والخلفاء والامراء الترك من ورائهم يجنون ثمار الجهالة التي تفشت في أممهم ويستغلون العامة من شعوبهم استغلال بُهم الانعام حتى عاد الاسلام غريباً كما بدا وانقلب الناس الى جاهليتهم الاولى. ولقد حذا المسلمون في هذه النوبة حذو المسيحيين في البلاد الغربية فأقاموا في بغداد ما أقامه الاوربيون في ممالكهم من محاكم التفتيش واوقدوا نيران العداوة والبغضاء على من خالفوهم في الرأى والاجتهاد ولو كان مرجعهم في ذلك كتاب الله وسنة رسوله الكريم. فلقد أوصدوا أبواب

الاجتهاد أمام العقول وقطعوا الناس فى العقائد والاحكام بأشياء وضعتها أيديهم ثم قالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكذبون

احتكرت هذه الطائفة وبالخاصة فى بغداد علم العقائد والشرائع وتأويل الكتاب والسنة كما احتكروا علم السنن الكونية والمباحث الطبيعية وتبعوا فى استبدادهم بالعامة بل وبكثير من الخاصة سنن رجال الكنيسة شبراً بشبر وذراعاً بذراع فحرّموا وحللوا وفسقوا وكفروا وحذروا الناس عواقب مخالفتهم فيما ينهون ويأمرون فأقاموا بذلك لانفسهم سلطاناً على النفوس والسرائر والعقول ، واتخذوا من مقاماتهم الدينية للترك المتغلبين والامراء الجاهلين آلات يبلغونهم بها مآربهم السياسية ومطامعهم المادية. فلاغراض سياسية صبغت بألوان دينية كان اكثر ما شهدته بغداد من المصادمات والاضطهادات الدموية التى قامت بإسم الدين وما هى من الدين فى شىء ولكنها شهوات المتغلبين ومطامع الجبارين قضت بأن يعطل فى بغداد القرآن ويطفأ بها نوره الساطع الذى جعلها فى عدة قرون كعبة المحصلين ومثابة المستنيرين ومهاد توأمى العلم والدين

ولما جاء المغول بغاراتهم الساحقة الماحقة كتب الفوز والغلب للجهل، وتم النصر للسيف على العقل، فهام الناس فى أودية الضلال ورجعت العقول الى جاهليتها الاولى انقطاعاً عن التحصيل وتقيداً بالتقليد وأخذاً بالخرافات والاضاليل

بهذه النظرة العامة التاريخية لموقف القرآن أزاء العلوم العقلية والكونية يتبين لكم أن حياة تلك العلوم وذيوعها فى سائر البلاد التى شملها ظل القرآن كانا معقودين بمبلغ وقوف الناس على معانى هذا الكتاب ومدى ادراكهم لاسراره وأخذهم بتعاليمه. ولعلكم لاحظتم كيف ابتدأ تقلص ظلالها عن الربوع الاسلامية ومتى انطمست معالمها فى الحواضر التى بها كانت زاهية زاهرة تضرب اليها آباط الابل من كل صوب، وتقصدها طلاب المدنية والعرفان من أطراف الارض . ولقد يدرك المؤرخ البصير أن أرواح الامم وعقلياتها يعدى بعضها بعضاً لا سيما ما كان منها خبيثاً فالشعوب الاسلامية فى الشرق عند ما غشت أبصارها ظلمات الجهالة فعل فيها رجال الدين

ما فعل فى الغرب رجال الكنيسة بالمسيحيين، وكم من مرة انحدث أو تقاربت فيها الاوقات التى كانت تقام فيها محاكم التفتيش فى أواسط أوروبا والاضطهادات المذهبية فى بغداد وما حولها

وما لى لا أحدثكم بما فعل الكثوليك بأمر شارل التاسع ملك فرنسا عام ١٥٧٢م بالبروتستانت من المذابح التى أحصيت ضحاياها فبلغت ستين ألفاً عداً مقارنا ذلك بالجناية الكبرى التى جناها السلطان السليم عام سنة ١٥١٣ م فى حدود العجم يوم أحصى الشيعة فى تلك البقاع بطريقة سرية لم يشعر أحد بها حتى إذا عرفت مساكنهم وأشخاصهم أمر السلطان فأبيدوا فجأة عن آخرهم وكانوا نحو أربعين ألفاً . ولم يكن لذلك من سبب سوى القصد الى إثارة نفس عميد الشيعة الشاه اسماعيل ملك العجم واستفزازه للمحاربة طمعاً فى ملكه وقصدا إلى إبادة دولته . فالسبب فى هذا المثل كما ترون سياسى بحت ظهر للناس فى شكل دينى . ولهذا المبحث من الأحداث والشواهد ما يخرجنا سرده عما قطعناه على أنفسنا هنا من الإيجاز والاجتزاء بالمجالات والأمثال .

كذلك كان شأن القرآن إزاء العلوم وقد كان من موساعاتها العلوم العقلية من الرياضيات والطبيعيات وما وراء الطبيعة فهو الذي قام بالدعوة اليها والترغيب فى البحث عن دقائقها وأسرارها وهو الذى ببركته وجد بين المؤمنين آلاف من أمثال الكندى ومحمد بن موسى الخوارزمى ويحيى ابن أبى منصور والعباس بن سعيد الجوهرى وأحمد بن كثير الفرغانى وجعفر بن محمد البلخى ونصير الدين الطوسي وألوغ بك وثابت بن قرة وعمر بن الخيام وابن سينا وأبى نصر الفارابى وابن رشد والحسن ابن الهيثم وأشباه هؤلاء من فطاحل العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والانقال والموسيقى وغيرها .

فلم يبق علينا إذن إلا البحث فى موقف القرآن الكريم إزاء ما يسمى الآن بالعلوم (Sciences) وهل فى طبيعة دراستها بالأساليب الحديثة ما يجعل بينها وبين القرآن وتعاليمه سدا لا يتماثقان معه وقتالا لا يرجوان سلاما بعده؟ أجل! بيد انه لا بد لنا قبل الدخول فى تفاصيل ذلك البحث أن نعرف لكم معنى كلمة (العلم) المألوف للعرف

الحاضر فى الغرب وكذا فى الشرق الذى يسير على أثر الغرب فى كل شىء فان لكل زمان اصطلاحه وعرفه ولكل عرف حدوده وحكمه . ولنعتمد فيما تقدم لكم من ذلك على أقوال أساطين رجال الفلسفة الحديثة من أهل أوروبة فانهم محدثو هذه الفلسفة ومبتدعو اصطلاحاتها وواضعو تعاريفها فنقول : —

(١) يقول هو كسلى « العلم » فيما اعتقد ليس سوى الذوق الانسانى بعد تربيته وتنظيمه . ويطلب هذا « العلم » حقائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس مع الاستعانة بجميع ماعرف لهذا العهد من أنواع الآلات العجيبة المدهشة مثل المناظير المكبرة (Microscope) والمناظير المقربة (Telescope) وهل أقيمت اكتشافات كبلر ونيوتون الا على تلك القواعد الثابتة قواعد الشهود بهذه المناظير ؟

(٢) ويقول الاستاذ بلفور فى خطبة له :

يتوقف « العلم » فى تحصيله والتثبت منه على المقاييس فكل ما لا يقبل القياس من الاشياء فهو خارج أو يكاد يكون خارجا عن حدوده الطبيعية . ومعلوم ان الحياة والجمال والسرور ليست مما يقاس فهى اذا لا تكون من موضوعات « العلم »

(٣) ويقول الاستاذ وِندِلْ « العلم » سواء استعان بالآلات أو لم يستعن عماده مايلاحظه الانسان ويحسه من الكائنات وما تهديه اليه فى المعامل الكيماوية والمعامل الطبيعية التجاريب والآلات التى تمكنه من انتزاع غوامض أسرار الطبيعة من مكامنها العميقة مع بلوغها من الدقة والضآلة ما يكاد يحجبها عن أبصار الرائين.

واذا أردنا أن نبحث فى باطن النظام الآلى للطبيعة أو فى خارجه ، أو قصدنا معرفة ما انبعث عنه هذا النظام وكيف كان وما مصيره ، أو حاولنا أن ندرك كنه هذا الكون ومبلغ شعورنا به، ولم وجد ولم خلقنا نحن هنا ، اذا أردنا ذلك فأن « العلم » الحديث ليس لديه جواب عن شىء منه اذ لا دخل لشىء من ذلك فى الحدود المصطلح عليها للعلم واذا كان لا علاقة « للعلم الحديث » بشىء من تلك المباحث ولا جواب لديه عن أمثال ما قدمنا من الاسئلة فليس بالطبع لاحد ممن يتكلمون باسم « العلم » أن يدعى أن « العلم » أقام البرهان على عدم وجود الله أو

إنه ليس هناك أرواح أو أن هنالك أو ليس هنالك بعد هذه الحياة الدنيا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار الخ اﻫ . مما اقتبسناه لكم هنا من أقوال أساطين التجديد الغربيين فى تعريف كلمة « العلم » وتحديد مداها وموسوعاتها يتبين لحضراتكم أن من الجهل الفاضح والغلط الطائش ان يتعرض باسم هذه الكلمة — ورقعتها من الضيق على ما رأيتم — الى المباحث العقلية البحتة وبالخاصة ما وراء الطبيعة منها فان « العلم » بالمعنى الذى وصفه وعرفه واضعوه كما سمعتم لا يعرض لشىء من هذه المباحث بنفى أو أثبات ولا يتناولها بامتحان ولا مناقشة وكيف وهو لا يصل الا الى المحسوسات ولا يعرف موضوعاً غير الماديات ولا منطقاً سوى المعامل والآلات

ولقد وقفت الكنيسة فى بدء بناء « العلم » على تلك القواعد الجديدة وقفة المحارب العنيد أيام حكمت بالكفر شعبة الآلهيات فى جامعة توبنجن بألمانيا على الفيلسوف كبلر سنة ١٥٩٦ وأصدرت محكمة التفتيش قرارها المشهور الذى خلاصته :

(١) ان النظرية القائلة بأن الشمس مركز الدنيا وانها لا تتحرك من مكانها هذيان فلسفيا ونظاما. وانها كذلك هرطقة لأنها بلا ريب مناقضة للكتاب المقدس

(٢) أن النظرية القائلة بأن الأرض ليست مركز الدنيا وأنها غير قارة ولكنها متحركة ومتنقلة، هذه النظرية مساوية فلسفياً لسابقتها فى هذيانها وخطأها ومن الوجهة الدينية تعتبر على أقل فرض عقيدة خاطئة .

ولم تهبط سورة الحركة العدائية للعلم وأبحاثه الجديدة الا فى نحو الثلث الأول من القرن السابع عشر بعد إذ أخذ رجال الدين يتبينون خطأهم فى فهم عبارة « العلم » ويفقهون ألا علاقة لها بغير الماديات والآليات من الكائنات أصلا فهنا نرى القسيسين الكاثوليكيين بليالدو وغسّيندى يتوليان علنا فى الأعوام (١٦٣٩م — ١٦٤٥) الدفاع عن نظرية كوبرنيق فلا يصابان بأذى ولا يتهمان بهرطقة

بعد الذى قدمنا لحضراتكم فى هذا المقام من البيان نود أن نقرر بكل توكيد أن موقف القرآن الكريم تجاه « العلم » فى الاصطلاح الحديث هو عين موقفه أزاء « العلم » فى القرون الوسطى الى عهد التجديد الغربى فهو كما كان قبلا لا يفتأ يدعو

العقل الى التفكير، والأبصار الى الأعتبار، والآذان الى الاستماع ثم هو مع ذلك لا ينفك يستدرج الناس الى التحسس من أسرار الكائنات ويحفزهم الى الكشف عن غوامضها والتنقيب عن دقائقها فهم بحكم تعاليمه الخالدة يفقهون انهم لم يؤتوا من العلم الا قليلا وأن الله يخلق مالا يعلمون وأن الكائنات خلقت مما يعلمون ومما لا يعلمون وانه ليس للعلم صورة خاصة ولا حدود حاصرة . كذلكم يجد المؤمنون أنفسهم بحكم آياته الحكيمة منهيين عن التقليد فى عقائدهم واتباع الظن فى أحكامهم والميل مع الأهواء فى تصرفاتهم .

على أنهم مع هذا كله يجدون فى كثير من آى القرآن ما يرشدهم الى مواطن التفكير والبحث ويعرفهم ما يتطلبون الوصول اليه من أسرار العالم ودقائق حقائقه. واذا كان استقصاء ما جاء من ناحية النظريات الحديثة فى القرآن الكريم وبيان القول فيه كما ينبغى مما لا يتسع له هذا المقام وجب أن نكتفى هنا بالأتيان على طوائف منها اجمالا لا تفصيل له وايجازاً نجتزىء بالاشارة فيه . فى هذه الحدود التى رسمنا لانفسنا نقتبس من الآيات الكريمة ماله علاقة وتناسب بأمهات تلك النظريات الفلسفية . وقبل انجاز ما وعدناكم هنا نرى أن نجمل لكم ما سبق تفصيله من القول فى هذه المحاضرة فأرعونا أسماعكم :

(١) ليست مهمة القرآن كسائر الكتب السماوية البحث فى الشئون الكونية والمسائل العلمية والفنية على النحو المألوف فى الكتب الخاصة الموضوعة فيها .

(٢) لما جاء القرآن الكريم كان فى جزيرة العرب من العقائد الفاسدة والعلم الخاطىء بالكونيات أضعاف أضعاف ما كان منها لدى بنى اسرائيل عند ما أخرجهم موسى (ص) من مصر فكان من الحكمة الالهية أن يتنزل على محمد فى سبيل تصحيح تلك العقائد والمعلومات أضعاف ما تنزل على موسى فى سفر التكوين. والحكمة البالغة فى ذلك أن الدعوة إلى توحيد الخالق وتقرير الحق من العقائد وقبول ما يلى ذلك من الشرائع والأخلاق ما كانت لتجد سبيلها إلى قلوب عرفت للأجرام العلوية وأصلها وألوهيتها وتزاوجها وما كان من أنسالها فى تكون هذه الكائنات ونظامها ما قررته العقلية القديمة فى بلاد مصر والأغريق وما يشبه فى جزيرة العرب وما حولها

أساطير الاشوريين والبابليين والـكلدانيين . إذاً كان لزاماً أن يسترعى القرآن الناس الى وجه الخطأ فى عقائدهم وأن يشككهم فى الباطل الذى اتبعوه لأنهم وجدوا عليه آباءهم وأن يطلقهم بذلك من الحجر الذى أشقاهم وألحقهم بالأنعام من الحيوان

(٣) كانت إذاً مهمة القرآن الحكيم التى أرادها لتمهيد السبيل إلى التعريف بالخالق جل شأنه أن يبين للعقول بضرب الأمثال لِمَ تفكر وفيم تفكر وكيف تفكر. فهو فى جهاده هذا كان يخطط أرض العلم لتقيم العقول البشرية عليها صروحه الشامخة المتينة ، ويرسم الخطوط الأساسية للصور كى يملأها الرسام بما يلزم لها من الألوان والظلال ومعالم الجمال

(٤) لم يقف القرآن الـكريم عند هذا الحد فيما ضرب لنا من الأمثال فى بيان بعض غوامض الحقائق الـكونية بل جاء فى ذلك بحقائق أمر الأميين وغير المحصلين بالتسليم بها والتفويض فيها كأمر العقول الناضجة المقتدرة بطلابها والوقوف على دقائقها والعلم بوجوه الصواب فيها. ثم نصح للفريقين أن يعترفا بعجز عقولهما والا يقطعا بشىء فيما لا تبلغه أبحاثهم وسعيهم بل يتهمون أنفسهم بالعجز والقصور ويسألون أهل الذكر فيما لا يعلمون أو يكلون أمر ما لا يدركون إلى من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير

(٥) ان المسيحيين حينما ثاروا فى وجه العلم ونظام الحكم ثوراتهم التجديدية فى أوربة لم يكونوا ليتشبهوا فى شىء من مواقفهم تلك أحداً من الشعوب الاسلامية فانما كان مبعث حركتهم العنيفة ومصدر ثورتهم الدموية ان رجال الـكنيسة باسم الدين حجروا على العقول والوجدان وقرروا للـكنيسة فلسفة حرموا على الناس حتى استيضاح ماغمض عليهم منها ثم قرروا تكفير من يقول بغيرها ولو اعتمد فى رأيه على الحس والمعاينة. حتى لقد كان منهم ميلانشتون وكيرمونيني اللذان رفضا أن ينظرا الى السماء بتلسكوب (الآلة المقربة) وقد روى عن غاليليو ان من تلاميذ المذهب الأرصطاطالى من كانوا ينكرون وجود أجسام علوية مرئية بالفعل وانهم كانوا يعتبرون فلسفة أرصطو كتلة واحدة لا تقبل التفكيك اذا نقض منها حجر أنهار سائر بنيانها على أثره فكان ذلك سبب مغالاتهم فى التمسك بها والحرص عليها مجتمعة

***

والآن وقد فرغنا من هذه المقدمات التمهيدية ننجز لكم ما سبق لنا الوعد به فنقول

(ا) تكوّن أصول جميع الكائنات من زوجين اثنين وبلسان العلم الحديث الكترون وبروطون

الآية (ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين) فما من شيء في الوجود الا منه الذكر والانثى سواء في ذلك النبات والحيوان والجماد وغيرهن مما لا نعلم . وجاء في بيان اجمال ذلك قوله تعالى (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) وفي عبارة « ومما لا يعلمون » من المعاني ما يسكن اليه عقل الانسان في كل زمان ويطابقه كما رأينا أحدث نظرية في أصول الأكوان

(ب) تتولد الحياة من الماء

الآية (وجعلنا من الماء كل شيء حى) وهذه الآية ناطقة بما يطابق العلم الحديث في هذا الموضوع . ولقد وقفت عقول قدماء المفسرين أزاء هذه الآية حائرة قلقة فلم تدرك منها ذلك المعنى على ظهوره ووضوحه ولذلك وقع لهم في تأويلها خلط كثير نضرب عنه صفحا هنا

(حـ) تعدد الأرضين

لم يذكر القدماء شيئاً في أمر تعدد الأرضين سوى ما نقله ابن سينا عن قدماء حكماء الفرس من أن هنالك أراضى كثيرة غير أرضنا وما زال الرأى السائد بين سائر الحكماء والفلاسفة يقول بعدم تعددها حتى جاء غاليليو المتوفى سنة ١٦٤٢ بمناظيره المكبرة والمقربة وكذلك من جاءوا بعده فأثبتوا بمشاهداتهم العينية الصادقة أن السيارات جميعها اراض كأرضنا وقد يكون بها ما بأرضنا من الجبال والوهاد والماء والهواء والخلائق والعمران . ولم يعتمدوا في هذا التجويز إلا على الحدس والظن فان مناظيرهم لم تثبت لهم ذلك بعد

أما القرآن فقد صرح بتعدد الأرضين في آية (الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن) ففى تفسير أبي السعود (من مفسرى القرن التاسع للهجرة)

ان الجمهور على أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض . وفى تفسير النيسابورى أنها سبع أرضين ما بين كل واحدة منها الى الأخرى مسيرة خمسمائة عام (١) وفى كل أرض منها خلق . . . (الى أن قال) وهم يشاهدون السماء من جانب أرضهم ويشهدون الضياء منها الخ . ومن أصرح الآيات فى أن السيارات أراض مأهولة آية الشورى (ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة) اذ المراد بالسماوات هنا السيارات على ما يأتى لنا من التأويل . ومن الآيات البينة فى هذا الموضوع قوله تعالى « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض وما فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون »

ومن قصرت عقولهم من القدماء استبعدوا وجود الحيوان فى الأجرام السماوية ولكن نفى الزمخشرى والبيضاوى وغيرهما استبعاد أن يخلق الله فيها صنوفا من الحيوان يمشون فيها مشى الإنسان على الأرض فالله خلق كما قالوا ما نعلم وما لا نعلم

(د) السيارات هى التى تدور فى مدارات وهمية وليست كما يقول قدماء الفلاسفة أنها ثابتة فى أفلاك دائرة بها وأن هذه الأفلاك لا تقبل الخرق والالتئام الى آخر ماجاء للقدماء فى وصفها والتعريف بها أما القرآن الكريم فيطابق الفلسفة الجديدة فى آية « كل فى فلك يسبحون » وآية « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق »

(ه) الشمس جسم مشتعل تبث النور والنار من ذاتها وترسلها الى سياراتها المرتبطة بها وان اقتضى ذلك اضاعة أضعاف أضعاف ما يحتاجه كل سيار من أشعتها. والأجرام الكونية جميعها حادثة بالذات والزمان وقابلة للفساد والفناء . ومن الثابت بالحساب ان الشمس تفقد من مادتها فى الثانية على أقل تقدير أربعة ملايين طن .

---

(١) مسألة تقدير المسافات التى بين السيارات مثلا بمسير خمسماية عام يفسرها الشهرستانى بالدابة تسير فرسخاً إسلاميا فى كل ساعة على ما هو معروف ومصطلح عليه فى سائر الكتب الإسلامية مما يبلغ مجموعه نحو ١٦ مليون ميل تقريباً وهو قريب جداً من تقديرات المتأخرين للمسافات الفاصلة بين السيارات كما يقول ذلك الأستاذ فى كتابه المسمى (الهيئة والاسلام) صفحة ٩٠ جزء أول

ولا ينبغى أن يزعج هذا عشاق الحياة الدنيا فان الشمس على هذا الحساب تحتاج فى فقدها جزءاً من مائة جزء من حجمها الى مائة مليون سنة وخمسين ألف سنة . على أنهابعد أن تصل الى هذه الحالة نجدها لا تزال ترسل من نورها وحرارتها ما يجعل الحياة فى أكثر أجزاء هذه الأرض صالحة طيبة

آيات القرآن فى ذلك « وجعل الشمس سراجا » « جعلناها سراجاً وهاجا »

قال مقاتل فى تفسيره الوهج يجمع النور والحر وفى القاموس وهجت النار اتقدت

ومن الآيات « إذا الشمس كورت » أى ذهب حرها ونورها وآية « إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت » « فاذا النجوم طمست وإذا السماء فرجت وإذا الجبال نسفت » إلى أمثال هذه من آيات القرآن الكريم . وهنا يجمل أيها السادة أن أذكر بالخير أحد مجتهدى الشيعة هبة الله المشهور بالشهرستانى وهو من علماء عصرنا فقد وضع كتابا فيما بين الهيئة الحديثة والإسلام من الاتصال فأتى على بعض مباحث قيمة مفيدة يحسن أن أقتبس منها ما جاء له فى بيان معنى السماء فى القرآن اذ يقول : —

(١) إذا وردت السماء والأرض معاً ومفردتين فى آية كان الظاهر من الأرض أرضنا ومن السماء ما علاها من الهواء والاجرام

(٢) وإذا ورد لفظ الأرض مفرداً ومعه السماء مجموعة كان الظاهر من الارض أرضنا ومن السموات الكرات والاجرام مطلقاً

(٣) واذا ورد لفظ الأرضين مع السماوات مجموعتين كان الظاهر من الاراضى السماوات والكرات البخارية المحيطة بها . ويقول صاحب هذه الضوابط انها قليلة التخلف تكاد تطرد اطرادا كاملا . وكذلك يقول اذا عنى بالسماوات الكرات البخارية المحيطة بالطبقة الهوائية المحيطة بالأرض قبلت دعوى القائلين بأن نبتون وفلكان ليس لهما سماوات وان السموات خاصة بالسيارات الاخرى باحتمال قوى . ويكون الاقتصار على تحديد الأرضين بسبع — مع أن فلكان ونبتون من الارضين وأنها تسع — لأنها ذكرت مع السماوات السبع المبصرة بغير المناظير المكبرة المقربة . وقد اكتشف نبتون وفلكان فى سنة ١٨٤٦ م

هذا وتطلق اللغة كلمة السماء على كل ما يعلو الارض . قال القزويني " كل ما فوق الارض فهو سماء » وقال الطبرسي في مجمع البيان « كل ما علاك وأظلك فهو سماء » وجملة القول فيما قصده القرآن من كلمة السماء ان السماء : —

(١) نفس الجو كآية « وجعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا »

(٢) الاجرام السماوية والسيارات كما في حديث « إن في السماء آدم كآدمكم ونوحاً كنوحكم » وكما في آية « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة »

(٣) جسم عظيم مكور محيط بالأرض ولكن اختلف الناس في فهم كنهه والمفهوم من بعض الأحاديث أنها كرة بخارية غازية وهذه مع كرة الهواء التي في جوفها تتحركان مصاحبتين للأرض بجميع حركاتها وفيها يقول الاستاذ فانديك (جزء ثالث — النقش في الحجر) :

« أنا عائشون في قعر أوقيانوس سيال معدل عمقه على الأقل مائة مثل لعمق أوقيانوس الماء الغامر للكرة الارضية » وفي هذا المعنى جاءت آية « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » ففي مروج الذهب وابن ميثم في شرحه على نهج البلاغة أن المفسرين اتفقوا على أن الدخان الذي تكونت منه السماء كان عن تنفس الماء وتبخره . وفي كليات أبي البقاء كل دخان يسطع من ماء حار فهو بخار وكذلك الندى . وبهذا المعنى أتت الآيات الكريمة (١) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (٢) يوم تشقق السماء بالغمام و(٣) وأنزلنا من السماء ماء و (٤) أو لم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي (وذلك في رأي بعض المفسرين) وكذلك جاء قول الشاعر

اذا نزل السماء بأرض قوم　　رعيناه وان كانوا غضابا

ولقد رويت بهذا المعنى أحاديث كثيرة تختلف درجات صحتها وفيها تسمى تلك الطبقة البخارية بالبحر المكفوف أي الذي لا يهبط ولا يسقط لانه في حالة بخارية

(و) فائدة الجبال في الارض وحكمتها انها مقام الانسان وغيره من الكائنات الحية أو شرط بقائها وحياتها اذ هي الجزء الجامد المرتفع الراسي الثابت المتماسك الاجزاء والعناصر الصلبة . ولولا هذه الخصائص والصفات لمادت الارض ببحارها

ولاضطربت بأمواجها كما يشاهد فى القسم المائى منها وهنالك لايكون للإنسان بها مستقر ولا للعمران فيها سبب ولا مكان

ومن الآيات الواردة فى ذلك المعنى (١) « وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بكم و (٢) « وجعلنا الجبال أوتاداً » و(٣) « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم »

وذلك أن الجبال لصلابتها وتماسك عناصرها وارتفاعها عن سطح البحار تكوّن للانسان مُقاما حصينا لايهدده طغيان الأبحر ولا يجترفه مضطرب الأمواج . ثم أنها لشهوقها ومختلف درجات ارتفاعها من الفوائد العظمى والشرائط الجوهرية الضرورية للحياة والعمران والحضارة مالا يخفى على المحصلين .ومن الأفن والخطل أن تتخيل الجبال كالأوتاد تُرَزّ فى الأرض أو الحائط لتربط بها الدواب خشية فرارها أو الخيمة لبنائها وأقامتها على أعوادها فأن هذا المعنى ليس مما يخطر للعقل السليم . وما لنا نأخذ بهذا التأويل السقيم ولنا فى معانى الوتد لغة مالا يلجئنا اليه ؟

لقد سمى العرب الهنيّة الناشزة فى مقدم الاذن وتدا فيقال « ما أملح وتدى أذنه » كما استعملوا أوتاد البلاد لرؤسائها الظاهرين فيها وأوتاد الفم لأسنانه المثبتة فى فكيه . اذاً لماذا يقذف بنا الشطط فى التأويل حتى نحمل كتاب الله العربى من المعانى ماهو بعيد عن نظمه البديع ومراميه الطبيعية ؟ أفلا يعلم أولئك أن الجبال هي المثبتة فى الأرض كما يثبت وتد الدابة أو الخيمة فى الارض والحائط وأن الامر بهذا ينعكس عليهم اذ تكون الارض هى الوتد الذى تثبت به الجبال لا العكس

ثم ماذا عسى أن يكون مبلغ تأثير الجبال فى الارض من ناحية حفظ توازنها ووقايتها ما يحل بها من الميدان والاضطراب كما يقول اولئك الواهمون . اننا نعلم أن الله سبحانه وتعالى رفع السموات والارض بما قدر لها من القوانين الكونية وما أقام بينها من التجاذب فهو الرافع لها كما فى القرآن بغير عمد مرئية للابصار ولكن جعلها سابحة فى الفضاء محفوظة من السقوط والاضطراب والميدان فهى تسبح بقدر فى مدارها سبحا لايعتوره نشوز ولا نكوب مادامت تلك النواميس قائمة معقودة

معقودة بمشيئة مبدع الكائنات وفاطر الأرض والسماوات (ان الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده)

على أن نظرة واحدة الى نسبة ارتفاع أعظم الجبال الى قطر الأرض تدلك على أن الجبال فى الارض ما هى الا كالمنات الناشزة فى سطح جسم الانسان لا تقيم بضآلتها وزنا لاعتداله ولا توازنه ، فان رفعة تلك الجبال الشاهقة فى كرة الارض على قلة عددها تتراوح بين خمسة آلاف من الامتار وتسعة آلاف متر تقريبا وبعبارة أخرى تتراوح بين جزء واحد وبين جزء ونصف جزء من ثلاثة آلاف جزء متساوية يقسم اليها قطر الأرض تقريباً (١)

ومن هنا يتجلى مبلغ ضآلة تلك الجبال فى الارض . أما الحكمة فى وجودها فقد سبق الكلام فيها واجماله أن الغرض هو اعدادها لعالم الحياة والعمران فى كرة الارض واستخدامها لتخفيف البلاء والجهد عن سكانها من الاحياء واقامة معالم الزينة والجمال فى أقطارها وربوعها

يشير الى ذلك قوله تعالى (والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج)

***

وبعد فقد آن لنا أيها السادة أن نكتفى بما قدمنا لكم من المجالات والامثال فان فى استقصاء هذه المباحث ما يحتاج الى ضخام المطولات . فحسبنا هنا ما تيسر لنا منها والله المسئول أن يوفقنا الى اكمال هذه الموضوعات وايفائها حقها من الشرح والبيان خدمة للدين وهداية للمستهدين من المؤمنين

ولقد أجدنى لضيق المقام مضطراً أيضا الى ارجاء الكلام فى التكليف العينى والوجدان الفردى الذى سبق لنا الوعد به الى فرصة أخرى تتسع لما فيه من المسائل القيمة نسأله تعالى التوفيق

---

(١) قطر الارض يساوى ٣٠٠٠ فرسخ

ذيل محاضرات

أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى

نقتبس فى هذا الذيل طائفة من الآيات والاحاديث التى وردت حول موضوعات تلك المحاضرات على سبيل التمثيل لا الاستقصاء.

فى الحديث الشريف

(١) الدين العقل ولا دين لمن لاعقل له

(٢) أثنى قوم على رجل حتى بالغوا فقال رسول الله (ص) كيف عقل الرجل؟ فقالوا اننا نمدحه بتقواه لا بعقله فقال ان الاحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وانما يرتفع الناس غدا فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم

فى القرآن الكريم

(٣) أمّن خلق السماوات والارض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون. أمّن جعل الارض قرارا وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون»

(٤) قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الارض، أم لهم شرك فى السماوات، أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه، بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا

(٥) أإله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين

(٦) سنريهم آياتنا فى الافاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق

(٧) انها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور

(٨) ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون

(٩) ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون

(١٠) وهو الذى مدّ الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون

(١١) كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة

(١٢) واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله مالا تعلمون

(١٣) لـكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل

(١٤) أن تقولوا يوم القيامة اناكنا عن هذا غافلين أو تقولوا انما أشرك اباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون

(١٥) ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانىّ وان هم الا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا

(١٦) ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير

(١٧) ويعلمكم الـكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون

(١٨) قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء

(١٩) وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء

(٢٠) هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولو الالباب

(٢١) هل يستوى الاعمى والبصير ام هل تستوى الظلمات والنور ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟

(٢٢) قال الذين اوتوا العلم ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين

(٢٣) فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون

(٢٤) ولا تقف ما ليس لك به علم . ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا

(٢٥) يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا

(٢٦) وقل رب زدنى علماً

(٢٧) سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين

(٢٨) وان جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما

(٢٩) وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون

(٣٠) بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم

(٣١) ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير

(٣٢) تدعوننى لا كفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم

(٣٣) (قالوا) انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون (قال) أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم

(٣٤) ولقد اخترناهم على علم على العالمين

(٣٥) ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون

(٣٦) وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون

(٣٧) بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم

(٣٨) ان فى ذلك لذكري لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

(٣٩) فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم

(٤٠) فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر

(٤١) فانما على رسولنا البلاغ المبين

(٤٢) افنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ؟

وهنالك كثير من آيات القرآن الكريم مختومة بمثل العبارات الآتية « قليلا ماتذكرون »، « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »، « ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين » ، « ان فى ذلك لآيات للعالمين » ، « ان فى ذلك

لآيات لقوم يتفكرون » الى أشباه ذلك مما نجدونه منثورا فى ثنايا الكتاب العزيز
والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على رسوله المبعوث بالآيات المنجيات

كلمة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى فى هذه المحاضرات

بسم الله الرحمن الرحيم

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » صدق الله العظيم .

اذا قرأت هذه المحاضرات فأخذك العجب ، ورجّحك الطرب . ووقعت فى هذا الباب على فنون من القول لاتصيبها فى غيرها ، ورأيت كلاماً يعلو على سواه من ألوان الكلام ، فاعلم أن هذا كله لايتهيأ لـ كاتب مهما جلّ قدره وتمت كفايته الا بهدى القرآن .

ولقدكان أول مابعثت فىّ قراءة هذه المحاضرات من الشعور أن أستاذى جاويشاً حين اعتمد القول فى موضوعه لم يجتمع له اجتماع القالة والكاتبين ، ولم يتكلف فى تلوين الأدلة ولا تعمّل فى ترتيب الحجج ؛ بل إنما كانت تنتضح نفسه بما فيها من الايمان انتضاحاً . ولو كان القرآن يدعو ، لا أذن الله ، الى حقن الافكار والعصف بحرية الآراء ، وعرض الاستاذ لمثل ما عرض له اليوم ما انتضح إيمانه بغير ذلك . إنما هو إيمان يتحدث . وإنما هو طبع يسيل .

الاستاذ جاويش على جلالة محله بسعة العلم ، وشدة العقل ، وقوة الفهم ، وصفاء النفس ، أجل محلا بمتانة الايمان . وما أبدع هذا وأنخر إذا ظاهر أولئك على تمكين كلمة العلم والدين والدعوة الى كرائم الخلال . وكذلك كان شأن هذا الرجل من يوم نجم فى هذه الحياة : جهاد موصول لاهوادة فيه ولا هدنة . وسعى حثيث الى تلك الغاية من حيث ينفرج له وجه الطريق . فاذا تملك عليه هذا القطر وثب الى طلبها من قطر غيره ، وهكذا لايكل ولا يمل ولا يسأم ولا يزهد . وكذلك يطبع الله لهداية خلقه رجالا ، على أنهم لا مأرب لهم فى هذه الدنيا ، الا أنهم مزدحمو الشعور بأنهم

مسئولون عما يعتريهامن مكاره، وأولئك وان قلوا عدداً الا أنهم كل شيء في هذا العالم

***

وبعد فمن ساعة وقعت لي هذه المجموعة الكريمة وأقبلت أتلوها ومهدت نفسي لأرسال كلمة في هذا الموضوع لم يشك ذهني معنى الا رأيت الاستاذ قد أصابه وجلاه في أحكم نسج وأفخر تعبير . وكذلك خرجت منها وأنا لا أجد كلمة واحدة يمكن أن تقال في هذا الباب لم يقلها الاستاذ في قوة وروعة وصفاء بيان

ولقد عاش الاستاذ جاويش بك قوة عاملة للدين والعلم والاخلاق . ولا أحسبه عاش لنفسه يوماً واحداً ولا انقبض عن العمل لأولئك يوماً واحداً . فاذا نحن دعونا الله تعالى أن يبسط في عمره ويسبغ عليه الصحة فقد دعونا لأنفسنا ولديننا بدوام العافية . أحياه الله أطيب الحياة ، وسدد خطاه وأنجح مسعاه ؟

عبد العزيز البشرى

مصر في ٢٨ ذي الحجة سنة ١٣٤٦ (١٦ يونيه سنة ١٩٢٨)

كلمة

لحضرة الاستاذ الفاضل احمد يوسف نجاتي

أحد أساتذه البيان والادب بمدرسة دار العلوم

سرت في الشرق حركة مباركة حركت من ساكنه وبعثته من مرقده فنبهت من كان غافلا وأيقظت من كان نائماً . وقد سلم الشرق كله لمصر زمام زعامته فكانت هي حاملة لوائه ، وكانت هي أسوته الحسنة وقدوته الصالحة ولا غرو في ذلك فهي مركز حضارته وقطب الرحى من ثقافته فقد نهضت نهضة حميدة تجدد بها تاريخها ، وحيَ بها مواتها ، وتثبت للعالم أجمع جدارتها بما تسمو اليه ومشاركتها البلاد الحية الراقية في نشر وسائل العمران وأسباب الحضارة والمدنية . ولقد تناولت هذه النهضة فيها كل نواحي الحياة وعمت كل أرجائها وظهرت في مظاهر شتى من ألوانها ، ومن أجلّ تلك المظاهر وأجلاها انتشار المحاضرات في دور العلم ودور التربية ، وفي الجمعيات

والاندية العلمية والادبية وغيرها تبحث فى كل مناحى القول وتهيم فى كل أودية العلوم فتنمى دائرة المعارف وتوسع نطاق الفكر ، وتعين على نشر الثقافة العامة وتقويمها

وقد سارت مدرسة دار العلوم كدأبها فى طليعة تلك النهضة العلميـة والادبية فعنيت بالقاء المحاضرات القيمة فى مختلف المباحث النافعة ومتنوع الشئون الهامة ، وعرف الناس لتلك المدرسة العالية القدر فضلا لايجحد على النهضة العربية والحركة الادبية وشهد لها كرام الناس أنها الحارس اليقظ للغة الفصحى ، والوصى الأمين عليها وأنها خادمة لغة الدين وكتابه المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ذلك الذى آخى بين العلم والدين وأوثق الصلة بين العقل والشرع وكشف من أسرار الكون وعجائب الطبيعة ما لا تزال العلوم الحقة تؤيده . بل تلتمس قوتها منه وكلما ارتقى عقل الانسان وتقدم فكره اهتدى الى ما كان حائراً فى فهمه منه وأسفرت له آياته عما كان محتجباً عنه فزاد ايمانا بذلك الوحى الالهى الذى أخرج الناس من الظلمات الى النور فقا ،

لقد ظهرت فما تخفى على أحد — الا على أكمه لايبصر القمرا

وممن أفاد المدرسة بمحاضراته ذلكم العالم الجليل والاديب الكبير والنابغة العظيم (فضيلة الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش بك مراقب التعليم الاولى بوزارة المعارف) ذاكم العلم الواضح الذى ضم الى الثقافة الشرقية العربية الثقافة الحديثة الغربية فجمع بين المزيتين وانال منهما الحسنيين وعني منهما بالالباب دون القشر فميز الرشد من الغى وزاده تضلعه فى العلوم الحديثة وتمكنه من اللغات الحية الراقية علما الى علم وايمانا الى إيمان وعرف من أسرار الكتاب الكريم والذكر الحكيم ما جهله الذين التبست عليهم سبل المدنية الصحيحة واشتبهت عليهم طرق الحضارة الحقة فأخطأوا القصد وتاهوا عن المحجة فضلوا وأضلوا ومن يضلل الله فلا هادى له والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم

سمح فضيلة الاستاذ مع كثرة أعماله التى يضيق عنها الوسع ولا يتسع لها الذرع أن يلقي بالمدرسة محاضرات جليلة نثرها درراً على السامعين فأحكم الصلة بين العلم

والعقل والدين والايمان واماط اللثام عن عجائب تناجي بأسرارها من أحسن فهم القرآن فلله منا الشكر الجزيل والثناء الجميل ونسأل المولى القدير الذى خدم كتابه أن يتولى عنا حسن جزائه . وقد رأينا الانضن على طلاب الحقائق ورواد البحث الصحيح بالاطلاع على جميع هذه المحاضرات التى غلت قيمتها فعزمنا على طبعها تباعا لتكون صلة بين المدرسة والجمهور ووسيلة من وسائل بث الثقافة العلمية والآراء الحكيمة الناضجة ولتتغذى العقول بمثل أفكارها ومعانيها وتثقف الالسنة بمثل اساليبها ومبانيها

هذا قصدنا نتقدم به بين يدى القراء وبالله التوفيق والسداد

فهرست

BP
130.6
J3
1928